

مكتبة الإسكندرية

قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى



قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى

قنطين باسوفسكى



قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى



قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى



قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى



قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى قنطين باسوفسكى



فنانون

محتويات

٥	مقدمة
٧	اوريست كبيرينسكى
٦١	اسحاق ليفيتان
٩٩	المنظر الطبيعى لروسيا الريفية
١١١	نيكو بيروسمانيشفيل
١٤١	فينسنت العارم
١٥٩	غوغان
١٧٥	فن رؤية العالم



منذ أيام الصبا استحوذت على فكرة وضع تراجم حياتية عن احب رسامي العالم المنمورين في القسم الاكبر منهم .
وكنت من حداثة السن والاعتداد بالنفس بحيث اعتبرت هذه المهمة سهلة التنفيذ . فالامر لم يكن يحتاج الا الى دراسة المواد ، والاندماج في الحياة المهيبة لمحارص الصور ، وقراءة رسائل وكتب الرسامين .

ولم اكن اعرف آنذاك ، وحتى لم اكن قادرا على ان اتصور ان حياة الفنان بتعقدها وألقى الوانها (اذا صح هذا التعبير) صعبة جدا على التصوير ، صعوبة اي غروب شمس ، مثلا ، اذا كنا نريد ان ننقل الى القماش كل شعاع ، وكل انعكاس للشمس على سلسلة جبال بعيدة ، حين تتوهج القمم المنفردة كسبائك الذهب من خلال ازرقاق الغسق الهابط .

ان حياة الفنان ليست جريانا متسابا من الاحداث والتأملات . فان الفنان الحق دائم الاضطراب ، موار . والعاصفة الداخلية تهدر فيه ولا تكاد تهدأ ، عاصفة عدم الرضى بالنفس ، والانديفاع العارم نحو الكمال .

وميض البرق ، وظهور المناظر والوجوه الواضحة القوية من الظلمة ، واندماج الضوء والارجوان والفضة ، واختراق اقواس قزح وشأبيب الغيوم المتألقة ، وكل ذلك منظور بجبروت ، كما هو في نقوشات «دوريه» . ان ذلك هو عالم الفنان .

واعترف باننى ما كان ليتمكنى في الوقت لكتابة هذا الكتاب عن الرسامين - كتاب عن عظمة ونبل عملهم الذي يرفع الانسان الى مجالات اتقى مما في الحياة .

وليس فقط ما كان ليتمكنى في الوقت للكتابة ، بل وما كان في وسعي ان اكتبه . فان مثل هذا الكتاب يحتاج الى قوة جلد ، على

К. Паустовский
КНИГА О ХУДОЖНИКАХ
На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية - دار التقدم ، ١٩٧٩

© دار وادوفا ، ١٩٨٥

П-4702010200-371 081-85
031 (05)-86

ISBN 5-05-000098-x

٦ ما اظن وحتى الى خيال ، والى قدر من المعارف من المستبعد ان يستوعبها عقلنا المثقل .

وهكذا ، بدلا من ذلك الكتائب كتبت بعض «الاشيركات» والوصاف التي تضمنها هذا الكتاب . ولكننى سأكتب ايضا عن تيرنر وويستلر وبوريسوف-موساتوف وكوستوديف وبيمينوف . ولكن اعطوني مهلة ، حسب ما يقولون * .

* واعاق المرض ، ومن بعده الموت الكاتب من تحقيق هذه الفكرة . وقد توفي ق . باوستوفسكى فى ١٤ تموز ١٩٦٨ - ملاحظة الناشر .

اوريست
كيبيرينسكى







في اواخر خريف ١٨٣٦ رست سفينة ايطالية متسخة في مصب نهر نيفا ، مقابل جزيرة غاليروني . وكانت قادمة من ليفورنو .

كان الثلج الاول ينزل ، ويتساقط طبقات من الاشرعة الخشنة ، الا انه كان يستقر كالفضة الرقيقة على عارضات الشراع . وفي غسق المساء كانت السفينة المسربلة بالثلج ، والمضامة بضوء المصابيح ، تبدو حتى لبحارتها انيقة وخفيفة .

لقد جلبت السفينة حمولة نادرة - اللوحات الاخيرة للرسامين الروس الذين كانوا يعيشون آنذاك في روما . كانت لوحات بريولوف وبروني ، صور كيبرينسكي ونقوشات ايوردان ملفوفة بعناية وموضوعة في مقصورة فارغة .

كان مجبر الرسم من اهالي بطرسبورغ ينتظرون وصول السفينة لوقت طويل . وكان الكاتب تيستور كوكولنيك اول من وصل الى رصيف الميناء . وقد نفذ الثلج الرطب من مطرته وقبعته المستديرة ، وذهب الى مقصورة القبطان .

كانت شمعة ترتعش على منضدة سوداء ، وضوءها يكشف عن بضعة برتقالات في مزهرية زجاجية مخيرة .

كان القبطان يأكل البرتقال ، وعصيره الفواح يسييل على اصابعه الملوحة . قال كوكولنيك في ابتسامة هازئة انه في نهاية الامر يحس بهواء ايطاليا ، هنا ، في بطرسبورغ .

غمغم القبطان بشيء غير واضح ، وسحب جرار المنضدة ، وهو يعضغ آخر قطعة من البرتقالة . وكانت في الجرار رسالة يمين النخراطل الجغرافية واوراق اللعب . وقدم القبطان الرسالة الى كوكولنيك . قض كوكولنيك الطرف ، واخذ يقرأ . وهذا ما قراء :

«في اواخر ايلول اصيب اوريسيت كيبرينسكي بحمى قاسية ما ان اخذ يبل منها بجهد الطيب ، واخذ بالخروج من بيته حتى اصيب بنزلة برد من جديد ، وعادت الحمى اليه . ولم ينهض هذا الفنان بعد هذه ، وتوفي منا ، في روما ، في اليوم الثالث من تشرين الاول الماضي» .

نهض كوكولنيك . وقال للقبطان خيرا منحوسا :

- لقد جلبت نبا فاجعا . لقد مات في روما واحد من اعظم فناني قرننا ، ابن وطني اوريسيت كيبرينسكي .

ولم يجب القبطان . واخذ يعيد تصنيف البرتقالات . وعلى سطح السفينة في الاعلى كان البحارة يتنادون . وبدت اللقطة الايطالية رنانة بشكل خاص في الثلج الكثيف المتناثر على الشوارع العريضة الخالية وقصور بطرسبورغ .

اختار القبطان اكبر برتقالة ، وتقذفها على راحة يده .

- هاك ، خذ ، - قال ذلك وابتسم ، وغير لعمان اسنانه صرورة وجهه المتجهج - في ايطاليا ينضج البرتقال والرسامون على الدوام ودون انقطاع .

استاذن كوكولنيك مودعا وخرج . واخفى البرتقالة في جيب مطرته ، وظل طوال الطريق يحس بثقلها ورائحتها .

سار كوكولنيك ببضع مغطيا فمه بيده من الريح ، وفكر بانه ليس في ايطاليا وحدها ، بل في بطرسبورغ ايضا يولد الرسامون بلا انقطاع . وقد مات اوريسيت الحبيب الساحر ، ولكن بريولوف وايفانوف واوتكين احياء .

كانت بيوت بطرسبورغ المطلية باللون الاخضر الفاتح والليموني والرمادي تبدو خرافية ، وضوء المصابيح يرتعش على الواجهات المعمارية الكالحة للبيوت .

- روما العظيمة وسط المستنقعات والغابات الشمالية ! - قال كوكولنيك ذلك قاصدا بطرسبورغ ، اذ كان معتادا ان يعبر عن افكاره بشيء من الفخامة - روما العظيمة في الثلوج ودجنة الليل . سيكون مصيرها رائعا .

وجلبت هذه الفكرة السلوى .

لم تعقب جريدة ولا مجلة واحدة على موت كيبرينسكي . وتحيير كوكولنيك . كان من الصعب معرفة دواعي الصمت الذي احاط بموت هذا الفنان .

وبعد مضي ما يقرب من شهر على موت كيبرينسكى نشر كوكولنيك بعض السطور الحزينة ، فكتب في «الصحيفة الفنية» :
«ان موت اوريست كيبرينسكى الذى سلب من روسيا بشكل غير متوقع واحدا من ألمع الرسامين من فى المطبوعات الدورية كالنفل الذى اقلته سحابة عابرة تسوقها ريع عاتية . حقا ان بعض التفاصيل عن ايام كيبرينسكى الاخيرة قد وصلت الى العاصمة الشمالية ، ولكن لماذا لم تصدر حتى التابينات الصحفية الاعتيادية على القبر الشهير ؟ لماذا لم تقدم أية الاجلال الاخيرة للفنان ؟ لماذا ؟ نحن لا نستطيع ان نبت ، ولكن الاسباب مستكشف» .

وكان السبب بسيطا . وهو ان روسيا القيصريينقولاى الاول لم تكن بحاجة الى كيبرينسكى ، كما لم تكن بحاجة الى فيدوتوف وبوشكين وريلييف وليرمونتوف وغوغل وايفانوف .

عاش كيبرينسكى حياة قصيرة . وقد بدأت بداية لامعة ، الا انها انتهت بهماقة وامى . لقد امسكته روسيا من عنقه ، واحتته ببطة الى الارض حتى جعلته يركع امام الاعيان ، امام القيصريينكيندورف . وضل كيبرينسكى الفنان سواء السبيل ، وادمن على الخمر ومات موته الحقيقي بوقت كبير .

ظلت البرتقالة الايطالية مدة طويلة على مكتب كوكولنيك . وكانت تشمع نعمة خاصة فى الهواء المغمم برائحة الكتب القديمة والسخام الضعيف للقناديل .

وقد حرص كوكولنيك عليها ، وجاهد طوال الوقت ان يتذكر قصة كيبرينسكى التى سمعها منذ زمن بعيد ، منذ خمسة اعوام عن البرتقال . وتذكرها بعد ذلك ، وسجلها ، ولكنه ، كما هو دائما ، اضاع ما كتبه وسط العدد الكبير من الملاحظات عن الرسم والقصائد غير الكاملة .

يتذكر ان كيبرينسكى كان يحدثه عن طفولته . وكان يذكرها على مضضى . انقضت فى عزة قرب اورانييناوم . و«اورانييناوم» بالالمانية تعنى «شجرة برتقال» .

كان الشيوخ الذين يتذكرون عهد يلينايتا يقولون ان هذه التسمية لم تكن بلا مدلول . فى عهد مينشيكوف مؤسس اورانييناوم كان البرتقال ينمو فى دفيئات القصر هناك . وحتى شعار اورانييناوم كان يصور حقا فنيا عليه شجرة برتقال تساقط منها مثقلة بالثمار البانعة .

وكان الشيوخ الذين عاصروا عهد يلينايتا بحارة من ملجأ المعزة البحرى فى اورانييناوم - العرشدين والمعلمين الاوائل للصبي كيبرينسكى . وكانوا يسمون به «المراطة» * . وكانوا يزجون الوقت كله فى الاحاديث البطيئة وفى النوم .

وفى اغلب الاحيان كانوا يتحدثون عن العواصف البحرية التى كانت تهاجم اليراج ، وهدير الامواج وصريف حبال الاشرعة . وكان يبدو بعد حكاياتهم ان الارض كلها مملوءة بالاعاصير الباردة وقتام السحب الثقيل والرياح والامطار والزوايع الرعدية . وكان البحارة الشيوخ يفتخرون بالعواصف ، وكانوا هم الذين استدعوا .

وكانت جهامة حكاياتهم تناسب الطبيعة المحيطة : سماء بيضاء مثقلة فوق الساحل المستنقى للخليج الفنلندى ، وتعاقب مرهق لخريف وشتاء موحشين .

وكان الصبي الجزوع - وكان كيبرينسكى طوال عمره جزعا لهوفا - يتربص الصيف ، حين كانت الشمس ، فى آخر الامر ، تحول مياه الخليج الى ذهب شاحب ، وتتهفئ كالسهم الوضاعة فى اوراق اشجار حدائق القصور .

وكان البحارة فى الصيف يدبون طالعين الى الشمس ، وافواهم الغالية من الاسنان تبسم لطيف الاشجار ، ومسقة الطيور الوجلة . وكانت حكايات البحارة هى الاخرى تتغير ، فتتزين عليها فترة صحو قصيرة وسط تلبذات الجو المستديمة . فكان البحارة يتذكرون ايطاليا ، ويخلطون فى اسماء البحار الجنوبية . وكانت

* مفردا وممروء - وهو حيوان قارض ينام فى الشتاء - المترجم .

ذاكرتهم تنفذ بجهد خلال الضباب الرصاصي ، خلال عسى الشيفوخة
كالماء الكدر ، ثم فجأة تنوهج الذاكرة بنور البلدان الجنوبية
الرائحة في غياض الزيتون ورنين النواقيس .

كان كيبرينسكى الصبى - وهو ابن غير شرعى للواء
دياكونوف الذى اكل تربيته الى فته آدم شفالبيه - مستقلا
بنفسه منذ نعومة اظفاره . وكان يستطيع ان يصغى ساعات الى
قصص البحارة او يعدو من البيت الى حدائق اورانيباوم ، ويقتفى
هناك عن الحراس والبستانيين .

وكانت هذه الحدائق مشهورة بقنواتها . وفي فصول الربيع
كانت تنعكس فيها شمائل الليلق الشذى ، والتماثيل المرمرية
تنعكس في الماء المخضوض للبرك الباردة التى يسبح فيها سمك
السلمون .

وكانت اورانيباوم ترهب الصبى بخلوها من الناس .
قالمسرح والقصر اللذان بناهما راسنبرلى قد خليا منذ زمان .
وخلال سنتين عديدة لم تسمح كركية عربات المتنزهين ولو مرة
واحدة . وآلت الحدائق ، على ما يبدو ، الى حرش منقوش . ولم
تنعكس مرايا القصر صورة انسان ، ولم تسمح الصالات الباردة وقع
اقدام ولا الموسيقى العسكرية لمهد الامبراطور باول منذ سنتين .
كان الصبى حرا في ان يسكن هذه الصالات بمن يتخيلهم من
الابطال والنساء الفاتنات . وكان يفعل ذلك بحماس باعتقاد تام
بوجودهم .

وهكذا تعود كيبرينسكى على الحلم منذ الطفولة . وبعد سنتين
عديدة اعطت روح الحلم البطولية هذه سحرا خاصا لاعماله . وكان
ذلك في الاعوام التى تحول فيها كيبرينسكى من صبى قسن الى
فتان ، وصارت اوربا كلها تتحدث عن «ريشته السحرية» .

في اورانيباوم كان كيبرينسكى يوفق من حين لآخر في
الانسلال متجاوزا كتمك الحارس الى القصر نفسه . وكان الصبى
ينتفضح طويلا والى حد وجع الصدغ الصور القديمة المعلقة فى
يصعد الى المدرج بحذر ، ويضغط جيبته على زجاج الباب البارد ،
الصالات .

كانت هذه الصور تظهر الملوك والباطرة يغبون على افراسهم
في دخان البارود الاصفر . ووجوههم المتعالية مضاة بتوهجات
مدافع الهاون القرمزية ، والدروع تلمع ، والرايات ترفرف في
السحب الراحدة الزرقاء المؤطرة باطار ذهبي ثقيل .

وكان كيبرينسكى يرسم في البيت هذه الصور من الذاكرة ،
وكان آدم شفالبيه الطيب القلب يريها سرا لسيدة دياكونوف .
وكانت الرسوم جيدة ، فقرر دياكونوف ان يرسل الصبى الذى
كان صغيرا جدا الى الاكاديمية الفنون .

وعلى الرغم من ان كيبرينسكى كان ابن دياكونوف ، الا ان
شفالبيه كان يعتبر اباه بالاوراق الرسمية . فبعد مولد الطفل
مباشرة امر دياكونوف شفالبيه بان يتبناه ، وان يعطى له عند
التعميد لقباً عائلياً هو كوبرسكى . نسبة لمدينة كوبريه مسقط
رأس الطفل بالقرب من اورانيباوم . وقد حمل كيبرينسكى هذا
اللقب حتى دخوله الى الاكاديمية .

وفي الاكاديمية غير لقب العائلة الى كيبرينسكى . وفي ذلك
الوقت كان يمكن للاولاد «غير الشرعيين» ان يتكروا ويغيروا
ما شاء لهم من القاب العوائل . فقد كان ذلك يعتبر من طبيعة
الاشياء .

وفي الاكاديمية الفنون انقضت طفولة كيبرينسكى وصباه كله .
وانطعت في ذاكرة كيبرينسكى لمدى الحياة قصص «المرامطة»
عن العواصف وحدائق القصر والصور المعتمة .

ولعله مدين للبحارة القدماى بالحدة الخاصة التى تجل بها
حبه للعواصف والزواجع الرعدية وسوء الطقس .

كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية ، حين كانت ربيع الرومانسية
تهدر فوق اوربا .

كان الشعراء الشاحبون - في البروق والعواصف والرعود -
ينشدون اناشيد حماسية عن روعة الصداقة ، والنفحات النبيلة
والحرية والشجاعة . ونشر جنود نابليون في ابعد المدن الصغيرة

مجد الانتصارات والمراسيم الثورية ورفيف الرايات المهلهلة .
ونظف الهلع العقول من تخمة القرن الثامن عشر وعنتيجته .
كان كيبرينسكى في عهد دراسته في الاكاديمية خاضعا
للرومانسية . وكان يبحث عنها في كل مكان . وكان بعد الجلوس
المرهق في الصفوف لينقل على الورق تماثيل من الجبس لزيوس
وافروديت يخرج الى شاطئ النيفا ، ويتجول فيه ، ويترنم بايات
لشاعر مغمور :

اسدله الليل الظلام على الحدائق القديمة .
والريح تصغر وتصغر وتعصف في فرجات الغاب
والقلب الرقيق كله في غرام وجراح ،
يخلق من منتصف الليل حتى نجمة الصباح .
آه ، يا مشغولي الموزيات ، لقد تأكد لصيبي
غير الحرب ينشد في هذا الليل ذى المائة عين
والسحب تعصف ، فكان يد القدر
تلوح بسيف لقيط فوق رأسى .

وكانت هذه الاشعار تدر الدموع من عيني كيبرينسكى .
فقد كان فيها كل ما احبه منذ الطفولة : الحدائق القديمة ، والريح
الباردة ، والسحب الليلية ، والقلب الرقيق . وفيما بعد قوى
تحت تأثير الزمن هذا الحب للطبيعة العاصفة والقلب الانسانى
المضطرب .

كتب كيبرينسكى فيما بعد «غالبا ما يتراعى لى طريق اسود
معرش بالاشجار . وتبدو الارض متحجرة ، وحتى الآن تحتفظ
بمظهر الفزع» .

وليس بلا مدلول ان تكون في كل الصور التى رسمها
كيبرينسكى في عهد الشباب سماء متلبدة عاصفة تلوح دائما وراء
الاشخاص الذين يبدو عليهم القلق ، وراء الشعراء والمحاربين
والنساء الحزينات . ويحس المرء لاشعوريا بان عاصفة رعدية
بعيدة ، وتكس امطار شديدة يغطيان وجوههم بشعوب عصبي .

ان جمهرة هؤلاء الناس الغرباء والجذابين تبدو وكأنها نزلت
لتوها الى شاطئ النيفا من سفينة قدمت من الارض التى ابتدعها
بايرون ، من بلاد حيث الاحاديث الحكيمة والمواطف الجياشة تمتد
الوجود بروعة غير اعتيادية .

كان اوغريوموف ودوين معلما كيبرينسكى فى الاكاديمية
ينظران الى فن الرسم بحماس وتفديق . وكانا يتطلبان من
تلامذتهما القدرة على الرسم بعيون مغمضة .

وكان دوين يلزم تلامذة الاكاديمية على ان يطلوا الجنفاصة
بالالوان بشكل تتعذر معه تقريبا رؤية اثر الريشة حتى تحت
العدسة المكبرة . وكان يستوجب ان يكون سطح اللوحة املس
مثل عظم مصقول بالورنيش . وبعد هذا فقط كان دوين يسمح
لرسمين الشباب بالعمل بلحسات عريضة حرة .

وكان الوقت كله ينقضى فى الرسم . وتعلم كيبرينسكى
السيطرة على القلم بالدقة التى يعمل بها الجراح بالمشروط . ولم
تكن ثمة فضلة من الوقت للقراءة .

وكان يسيطر على عقول الرسامين آنذاك ليفتسكى الاوكرانى
الداهية الطيب القلب الذى ابدع صورا عبقرية لفرسان وسيدات
عهد يكاترينا .

وكان الجميع يحاولون محاكاة درجة اللون الذهبية الدافئة
للوحاته . كان الرسامون الشباب يلتفتون هذه الدرجة اللونية
ويتدارسونها في كل مكان - في صفوف الاكاديمية المغبرة ، حين
كانت الشمس الغاربة تلقى اشعتها المائلة على الباركيه (الواح
ارضية الغرف) وفي الانعكاسات اللامعة للقبضاب وارتفاع
الشمعدانات البرونزية ، وفي حدقات الحسانوات المذهبة بلهب
الشموع .

وفى لوحات ليفتسكى الاخيرة اختفت درجة اللون الذهبية .
فقد استبدلها بدرجة لون بنفسجية وقرمزية - درجة لون
باردة شائخة .









وقد اتخذ دوين ذلك ذريعة ليلقي أمام الطلاب خطاباً عن اختلاف الاحساس بالالوان في الشباب ومن النضج والشيوخة .
- الشباب يتسم بهجة الالوان ، ومن النضج بالنسبة الدقيقة في استعمال الدرجات اللونية الدافئة والعميقة ، والشيوخة بالالوان الضاربة الى الزرقة والباردة ، الشديدة الشبه بلون العروق على ايدي الشيخوخة - كان دوين يقول ذلك ويعجب بنفسه بصيرته - ليس فقط ان لكل سن بها الانسان الوانها المحببة ، بل ولكل بلاد ولكل قرن على مدى عمر البشرية ، ادرسوا وجوه ناس والوان قرونكم ، اذا كنتم تريدون ان تصيحروا رساميه !
وسار كيرينسكي على نصيحة دوين . فدرس وجوه اناس والوان قرنه بالحساسية المجيول عليها .

عاش كيرينسكي في ذلك الوقت حياة شاب بطرسبورغ طليق العنان ، مثل بوشكين الذي كان قد تخرج لتوه من الليسيه . ولكن حتى في مضطرب الحياة السهلة ، وسط حفلات الرقص والليالي الساهرة والانغماسات التي لا حد لها مع الحسناوات كانت تتوفر لدى كيرينسكي لحظات من التركيز والانتباه . وكانت ترد فجأة ، وتهبط عليه تارة وهو في الشارع ، وتارة في العربة في طريق العودة من حفلة مع الرفقاء ، وتارة في معمان الحديث مع الاصدقاء .

وكان العالم المحيط به يتغير فجأة ، وكانما من رجة داخلية شديدة . انى يوجه بصره ير الواناً صافية ، كثيفة تارة ، وشفافة اخرى ابدعها نور شمس الشمال والثلج وضوء البصباح . وكانت الارض الاعتيادية تبدو في تلك اللحظات من صنع الرسامين الصابرة او الصاويين . كانت السماء والسحب تبدو وكأنها مرسومة من قبل الرسامين الفينيسيين ، والآفاق المزرقة من الهواء البارد قد خطها راستريل بقلمه الذي لا يخطا . وذات مرة عاد كيرينسكي من ضيافة في الفجر الشتافي . وقد سار على الجسر عبر النيفا مطرقة برأسه ، وغير مفكر في شيء - فقد كان ناعسا . ومرت به عربة عجلى متاخرة تجرها ثلاثية احصنة - وتناثر على وجهه نثار الثلج اللامع .

٢٩ وافاق كيرينسكي على نفسه ، ورفع رأسه ، وتوقف . وما رآه فيما حوله كان اشبه بحلم مهيب منه بصباح بطرسبورغ .
لم يرد الليل ان يغادر بطرسبورغ . فكان يرقط طبقات من الهواء اليماني الثقيل في اسافل المباني ، وفي اعماق الحدائق . وبزغت الشمس . وتوهج ضوءها القرمزي على نواصد القصور ، وهبط الى الاسفل ، في الظلام ، منتزعا منه تارة كشكا مغطلا لعارس ، وتارة نصبا ببرنزي لقائد شابته ذرور الثلج ، وتارة ثالثة تاج عمود مزدانا بأوراق الاقنثوس المتجمدة .
كانت سماء إيطاليا تمتد في السميت صاقية رائعة ، في قافلة من السحب الخفيفة المتوردة . وكان يتطاير ثلج كثيف بطيء . وبذا ذلك في صحو السماء غير مفهوم ، وتراى وكان الثلج يتكون في الهواء الصافي بين الارض وقبة السماء .
نظر كيرينسكي طويلا الى تساقط الثلج المهيب ، وسط ساحات بطرسبورغ الخرساء الغالية من الناس . وكان الثلج يستقر برفق على درابزبات الجسور ، وعلى ياقة المعطف الفرائية ، وظهور الحوذية الناعمين .
كانت العاصمة مغطاة بلألاء ابيض - ودقت ساعة برج بعيدة معلنة الساعة . وفيما حوله تتدفق رائحة الغابات المحدثنة ببطرسبورغ من الشمال والشرق .
وفكر كيرينسكي : « كم انا سعيد وقد ولدت في روسيا » .
وحين وصل الى حجرة التي عنه معطفه البهليل وجلس عند الموقد المشتعل . وقال في حنين :
- اين اجد اللون لاصور فيه هذا السكون الشتاني ، وهذا اللاء والقصور التي فقدت حجوما وثقلها ، واخيرا لاصور قلق قلبي ؟ وباية ريشة الهية استطيع ان انقل النشوة الخرساء لهذا الصباح ؟
ولكن في الند ، وبعد هذه الافكار نسي الرسام الشباب - المتائق الطائس - كل ذلك ، وطرح الريشة ، واسرع ليشاخصه استعراضا عسكريا للحرس . كانت الافواج هناك تقف على قدم

واحدة كاشفة عن سيقان مجورية ، جامدة تحت نظرة الامبراطور
باول السبالة المخبولة . وكانت في انتظار كيبرينسكى هناك فتاة
من المعارف محبة للتدريبات العسكرية .

كان يشير اعجابها لعمان السيوف المرفوعة نحو السماء ، وقرع
الطبول ، والطبيلة الموزونة للافواج التي كانت تدور حول
الامبراطور المعكوف الأنف .

وذات مرة قالت الفتاة لكيبرينسكى :

— لو اعطيت قلبي لما اعطيتك لغير محارب .

وفي الاستعراض التالي اخترق كيبرينسكى صف الجنود ،
واندفع نحو باول وصاح :

— يا صاحب الجلالة ! انا رسام ، ولكنني اريد ان استبدل
الريشة بالسيف ! اتوسل اليكم ان تقبلوني في الجيش .

تعبس باول ونظر الى المتائق الشاب ، وكبح حصانه .
وقال من خلال اسنانه :

— ابعده . الاستعراض العسكري مقدس . ولن يسمح احد
لنفسه الاخلال به بصيحات نزقة .

وتلقى كيبرينسكى من رئاسة الاكاديمية توبيخا صارما . وقد
قرئ التوبيخ بحضور جميع طلاب الاكاديمية .

وهز الرفاق اكتافهم بكسر . وكان من العسير ان يفهموا كيف
ان شابا يملك مثل تلك الموهبة يريد ان يستبدلها لكسب رد
امسرة .

وعانى كيبرينسكى خجلا شديدا ، ولكن سرعان ما نسي ما جرى
في الاستعراض . فقد كان مستغفرا ليس فقط ايان شبابه ، بل

وفيما بعد ، في سنوات نضجه ، وفي آخر الامر قضت عليه الخليفة
الطفولية والركض وراء البهرج الظاهري .

رسم كيبرينسكى ، وهو ما يزال في الاكاديمية ، المنظر
الطبيعي « البركة » ، وهو من اروع المناظر الطبيعية في الرسم

الروسي . مفعم بالسكون والروعة . البركة ساكنة . والماء فيها سقيط داخن ، ذلك ما يكون عادة
في الصباح الباكر او غب الشفق .

اسوار الاشجار العالية ، الادلغال الداكنة ثقف على ضفاف
البركة بلا حراك . وفي السماء تخيم سحب رمادية مشبعة بالندى .
وتشال امرأة مرمرى يعتق بكافة في الماء الوضي .

ان لوحة كيبرينسكى هذه تعائل ببساطتها ورفقتها قصائد
بوشكين التاملية النابذة * . فان شعر ساعة الغسق قد انعكس
فيها بارهض مبهارة .

كان اصداقاء كيبرينسكى يقولون انه كان كالتانيسر الليلي لا
يبدأ بالعيش الا في الغسق .

ويحس المرء لاراديا بان هذين البيتين المنسيين لبوشكين
في مطلع قصيدة غير كاملة يشيران الى كيبرينسكى :

الا ، ايها الليل ، خيرى
لم ظلمتك ابهج الى ...

والبيت الاخير مقطوع ، ولكن ضوؤه واضح . ان ظلمة الليل
ابهج من ضوء النهار الفاضح . كان الرومانسيون يميلون دائما

الى الغسق ، حين تبدو لا الطبيعة وحدها ، بل ووجوه الناس
ايضا مبهمة وملهمة .

في ذلك الوقت على وجه التقريب رسم كيبرينسكى صورة
ابيه .

وبعد عدة سنوات عرض هذه الصورة في نابولي . وهاج
رسامو نابولي اشتد الهياج . واستدعى كيبرينسكى الى نيكوليلى

رئيس اكاديمية الفنون في نابولي .

وقد قابل هذا الايطالى المعجز الصفراوى المزاج كيبرينسكى
بارتياب وقال ان افضل المختصين يفن الرسم قد فحصوا الصورة

بتدقيق ، وجدوا ان ليس من الممكن ان يرسمها اى رسام من
القرن التاسع عشر . واعتبرت الصورة عملا من اعمال روبنس

انتحلها كيبرينسكى لنفسه . حقا ان اصوات المختصين قد
اثرت هذه الكلية موحمة لما يسمى
elegy — المترجم .

اختلفت . فبعضهم اعتبر الصورة من عمل فان ديك ، وآخرون نسبوها لبرمراندت .

وتحقته كيبرينسكى في وجه الرئيس . وراح نيكوليني يصرخ بأن الاكاديميين النابوليين لن يسمحو بأن يخذعوا من قبل اجنبى بهذه الصورة الوثقة .

وبالطبع اثبت كيبرينسكى بدون عناء ان الصورة بريشته ، وغنيا بعد ظل يسخر طويلا بالنابوليين .

في عام ١٨٠٣ انتهى كيبرينسكى الاكاديمية بشكل لامع . وبدأت افضل سنوات حياته .

لم يكن بدون جدوى تملك كيبرينسكى بنسجعة دوين ، ودراسته لوجوه اناس عصره . فقد خلق منظومة من الصور ، حيث كان كل وجه يعبر عن النموذج الداخلى الكامل للانسان ، عن ابرز صفات طبيعه .

ودراسة صور كيبرينسكى تثير في النفس انفعالا ، كذلك الذى تحس به وقد قضيت وقتا طويلا في التحدث مع الكثيرين من القادة العسكريين والكتاب والشعراء والنساء في بداية القرن التاسع عشر .

كان كيبرينسكى يرسم بنضادة وسعة واكتمال . وفي صوره لا تبرز الوجوه وحدها ، بل وكان معها كامل حياة الاشخاص الذين رسمهم - عذاباتهم ، اندفاعاتهم ، البطولة ، الحب . وكل هذه قد تركت اثرها على هيتهم ، وثقلتها الريشة .

كان احد معاصري كيبرينسكى يقول انه حين يخلو الى صوره يسمع اصوات اشخاصها .

وفي ذلك نصيب من الحقيقة . فان حياتية الانطباع عظيمة جدا ، بحيث اننا ، ونحن ننظر الى صورة بوشكين ، يخل لنا اننا نسمع صوته المألوف لنا منذ زمان يخاطبنا ، نحن احفاده البعيدين .

٣٣ وذخيرة اعمال كيبرينسكى متنوعة . وهى صور ذاتية رائعة ، وصور اطفال ومعاصرين له من شعراء وكتاب ورجال دولة وقادة ومعبي فن الرسم وتجار وممثلين وفلاحين وبحارة وديسمبريين ورسامين وماسونيين ونحاتين وهواة جمع الاشياء ، ونساء مستنيرات ، ومعماريين .

ويكفى تعداد بعض الاسماء لكى ندرك ان كيبرينسكى كان الرسام الحقيقى لزمانه : بوشكين ، كريلوف ، باتيوشكوف ، الشاعر الاعسمى كوزلوف ، روستوبتشين ، الكونتيسة كوتشوبى ، علامة الفنون اولينين ، غوليشيف-كوتوزوف ، الماسونيين كومانوفسكى وغوليتسين ، الاميرال كوشيليف ، بريولوف ، الممثل موتشالوف ، مترجم الاياداة غنيديتش ، الفارس الاسطوري دينيس دافيدوف - «الحارب ذى الشعر الاسود الاجعد والعقصة البيضاء على الجبين» - الفنانين فينغر ، دى فولان ياني ميناء اوديسا ، الديسمبرى مورافيوف ، الشعارين فيازيمسكى وجوكوفسكى ، المعماري كفارينغى .

وهذه القائمة لاعمال كيبرينسكى الشاب ناقصة الى حد بعيد . فقد ترك كيبرينسكى ايضا عدة صور ذاتية له .

كان يرسم نفسه تارة متلبذا على فن الرسم ، وتارة صبييا حالما يطالع الاشعار ، وتارة شابا انيقا دافقا بالحوية من عليه القوم جامعا في نفسه صورتى موزارت وبغيني اورتينين .

ولكنه في كل هذه الصور متشابه - عصبي ، مستخف ، رفيف ، ذو حاجبين مائلين متطارين ، وكان رفاهه يسمونه «الملائى الرقيق» وقد ترك احدهم عن كيبرينسكى ملاحظة متعذبة ، ولكنها معبرة :

«كان متوسط القامة مشقوق القوام الى حد كاف وحلو الا انه كان يحب أكثر ان يجعل نفسه وسيما» .

قبل حرب عام ١٨١٢ بوقت قصير ارسل كيبرينسكى الى موسكو كمساعد للنحات مارتوس . وكان مارتوس في ذلك الحين يعمل في نصب مينين ويوجارسكى .

وفي موسكو استمر كيبرينسكى في الرسم بالحناس المبهود وبهارة .

وكان يحلم في السفر الى إيطاليا ، يحلم في روما - الوطن الثانى للرسميين ، الا ان الحدود كانت مخلقة .

فقد كان جيش نابليون يرحب على أوروبا في هدير المعارك والانصارات . وكانت المتاحف تهتز على دوى قصف المدافع ، والقذائف تحتاج بولفرات فينا الموسيقية . وقد غادر الرسامون الحقول تاركين المكان لمجلات المدافع والقرسان المخبزين وحربات الاسعاف .

وسلم كيبرينسكى بما هو واقع ، وراح يجاهد ليساعد مارتوس النحات الذكى الذى كان قد اشتهر بنصب الدوق ريشيليو في اوديسا .

في تلك الفترة تكشف موهبة كيبرينسكى بكامل صورتها . وبدا وكان خفة الطيش قد زابت الفنان . وكان يحس بعصق وقوة ، ويعبر بجرأة واتساق عما كان يحس به .

وكان العمل يطاوعه بسهولة . فكان «معبود الحظ» عن حق . وانتقل كيبرينسكى من موسكو الى تفير ، حيث كانت تعيش في ذلك الوقت ابنة باول الاول الاميرة يكاتيرينا بافلوفنا . وقد دعست كيبرينسكى الى دارها ، واحاطته بالرعاية والاهتمام .

كان قصر يكاتيرينا بافلوفنا قد تحول الى منتدى للادب والفنون الجميلة . وكان الكثيرون من البارزين في موسكو يقدون اليه بدون كلفة .

وكانت توافد القصر تتوهج في كل مساء بمئات الشموع . وفي غرف الاستقبال كان شعراء موسكو وكتابها ورعاة الادب والفنون والرسامون يدخلون ويتجادلون ويشتمدون الاشعار ويتساجلون . وكانت العرب تقترب . وانفاس ايام القتل ، وتحركات الجيوش ، والهلع الذى استولى على البلاد - كل ذلك قد زاد توتر وقلق الفكر .

في بعض الاحيان عند انتصاف الليل كان يدخل القصر مسرعا

ضعيف جديد غير متوقع . وكان مطره يهوج برائحة الربيع والحقول . وقد جاء من موسكو الى تفير على عربة يريد في نفاذ صبر ليعلم آخر اخبار المعارك ، وليستمع الى الاشعار الطنانة ، وضجة النقاشات المتحمسة .

وما اكثر الذين مروا بالصباح الكايب عند مدخل تفير وبالحناس العاجز الكسول من القادمين المبهودين في روسيا كلها . كان كيبرينسكى يعيش مع الجميع حياة حافلة ساهرة .

ولكن في احد الاماس لم يقدم احد . ودخل ساحة المدينة فوج من الفرسان العيوسين يخبون على افراسهم ، واقاموا مخيما . واشعلوا نيرانا اضاءت قطرات المطر السوداء . وكانت الخيول تعلق بصوت عال ، ورائحة الدخان والروت وعرق الخيول والخب جزا لا ينفصل عن الشجار الاجش وصوت البوق الهازج . لقد احتل نابليون موسكو .

وراء السكون على تفير ، ولم يصل احد . ولم يجد كيبرينسكى من يرسمه . عند ذلك اخذ يرسم صور فلاحين ومناظر طبيعية في اطراف تفير وشواطئ الفولغا .

وحل القلم محل الريشة ، غير ان كيبرينسكى كان يلمون رسومه بدقة مذهلة .

وداعت شهرة كيبرينسكى بسرعة فائقة .

وعاد من تفير الى بطرسبورغ عبقريا معترقا به تقريبا . ونفذ صيته الى أوروبا الغربية ، وكانت العاصمة كلها تتحدث عن «القلم الساحر» للرسم . وكانت الخفة التى يبدع فيها صوره تبدو اعجازا .

ودعى كيبرينسكى الى البلاط ليرسم صور الامراء العظام . وكانت جميع الشخصيات البارزة في العاصمة تسعى للحصول على شرف تخليدها من قبله .

وانقلب الاعتراف الشرعى لغيره من الرسم بالرسم الى موضة فارغة جماعية في الطبقة الراقية البطرسبورغية . وصار كيبرينسكى على الموضة ، مثلما كانت قلائد المرحان بين النساء

في ذلك الوقت ، وسلاسل الساعات الزنثانة - المسماة «شمايفاري» - بين الرجال ،

واخذ كيبرينسكي يرسم افضل من ذي قبل ، ومهارة صورة ، ولا سيما صورة آل حقوستوف تبدو وكأنها بلغت حدود الامكانيات الانسانية . وتناقلت بطرسبورغ الكلمة المبهجة التي القاها احد الناس ، والقائلة بان الوان كيبرينسكي تؤثر في الناس تأثير خمره شميانيا . فهي تولد تحولات حادة من الابتسام الى الاسى الغامض ، من النشوة الى الاستفراق .

ان كيبرينسكي الممتلك لموهبة الرسم بلا مقدمات تحضيرية ، وان كان يفتقر الى الكثير من المعارف الضرورية والصلابة والشجاعة كان غارقا في لآله المجد ، ولم يكن يشفق على نفسه . وكان الالهام الحالـة التي تعز على التعديد ، حلم الفنانين والشعراء - يستمر اياما ، اسابيع ، شهورا .

وكان الالهام يجعله يضحك فرحا عند كل ضربة موفقة من الريشة ، ويعاني من الارق ، ويطوف في بطرسبورغ في اخضرار والقي الليلي البيضاء ، يتبع في السياه الغافية المتعددة الالوان لكي ينقل هذه الالوان فيما بعد الى الجفانصة .

كان ايمان الرسام في عظمة الموهبة الوضاعة لبيديه وعينييه وتحسسه للعالم يجعله في حالة من التوتر الداخلي المستمر .

فهو يخرج من مرسه الفواج بالذلك الى القصور الامبراطورية حيث يبدو الهواء له نبيلاً لكثرة اللوحات والاثاث والبرونسن المصنوعة بايدي الاساطين ، وحين يخرج من قصر يلتقي باصدقاء يعيونه بفتوة وفرح . ويلتقي بنساء يتسمن غلاية له ولشهرته ولشبابه السعيد - نساء رائعات ينتظرن حبا شديداً الروعة ايضا .

راسه في دواز . والايام تهر بتوتر شديد . وقد ولد التعب مثل الغارة في مكان ما في اعماق الدماغ ، وها هو ذا يشرع في

القرض بصورة خفيفة في البدء مستثيرا نوبات من الرجس في راسه . وكان كيبرينسكي يفرق بالنهية تعب ودوار راسه .

ولم يكن كيبرينسكي يعرف ، وما كان في وسعه ان يعرف ، ان الشهرة لاناس من امثاله اقلع من الموت .

كان يستمتع بالشهرة ويفتخر بها . وكان يصدق في صفاء نية بالتملق وتديبجات الصحفيين الطنانة . فكان يظن ان العالم الآن تحت قدميه طيعا لاعميته .

ولم يكن يعرف ان الموهبة التي لم تسبك في اشكال صارمة من الثقافة لا تترك ، بعد ان تنفجر للحظة ، غير السخام . ونسى ان فن الرسم لا يوجد من اجل الشهرة . واستهان بكلمات بوشكين القائلة بان «خدمة آلهات الفنون لا تحتل اللغظ والجلبة ، فان ما هو جميل يجب ان يكون مهيبا . . .» .

وقد دفع لذلك فيما بعد ثمنا باهظا وقاسيا .

لا أحد يدري بم كانت ستنتهي تلك الايام المبهجة لو لم تأت فترة من التقاط الانفاس ، فقد سمع الكيبرينسكي بالسفر الى روما «للتحضر في مهارة فن الرسم» .

فلربما كان كيبرينسكي قد تحطم ومات في شبابه ، كما مات العديد من الموهوبين في روسيا آنذاك . ولربما ما كان ليحصل الفن وسيلة للنجاح في الحياة ، وهو يعيش قريبا من جوكوفسكي وبوشكين ، وفي وسط من الناس العارفين بتخلخله الروحي . فمن يدري ؟

كان هو في قرارة نفسه يدرك انه يرتكب خطأ ، ولكنه ، وهو غير المتعود على تحليل حالاته النفسية ، لم يستطع ان يقرر كيف يجد الخلاص منه .

كان يتشوق بشكل مبهم الى صديق يمكن ان يمسكه عن الركن وراء النجاج والبهرج الخارجي ، ويشفيه من شلل الارادة ويلهمه حكمة انسان كبير وتواضع عبقرى حقيقي . وقد لاحق هذا الحنين الى الصديق - الحارس كيبرينسكي حتى مماته ، ولكن التعلش الى الحياة السهلة والنجاح كان يتغلب على كل شيء .

ابحر كيبرينسكى من بطوسبورغ الى ليوبيك على سفينة . وكان البحر هائجا . وقد اعجب كيبرينسكى بذلك . فقد خيل اليه ان السفينة تحمله الى الاقطار الرومانسية الضبابية التي راودت احلامه منذ الطفولة .

وصمقته ليوبيك بخاؤها . فقبل فترة وجيزة غادرها آخر افواج نابليون . استقبلت المانيا الفئان بعنيف اشجار العور على جوانب الطرق ، وهدير الراين السريع الجريان . واخيرا وصلت عربة كيبرينسكى الى سويسرا . وراى جبال الالب . وهو يكتب في رسالة الى اوليين متعجبا :

«لقد شاهدت الجبال التي حكم عليها بالجلد الابدى» .

توقف كيبرينسكى في جنيف ، وفيها رسم عدة صور ، وانتخب عضوا في جمعية الرسامين . وقد استقبل هذا الانتخاب كشيء يتاله عن استحقاق .

وغادر جنيف الى ايطاليا . ولم يبارحه الفرح . فان ازدهار الطبيعة الاجنبية قد خلق حوله عالما جديدا للرسم .

واستقبلته الغابات الكثيفة على ضفاف لاغومادجوره بخفيف خفيف . وكان ضوء الشمس يرتعش على اوراقها وكأنما على سطح البحر . «كانت عناقيد العنب تتوهج كالبخات ، والقرى تبسم لصورتها على الماء اللأزودى وكانت اصوات الرعاة تتردد غير مبهمة ومرحة في الهواء الدافئ الساكن» .

وفي ميلانو قضى كيبرينسكى اياما كاملة عند لوحة «العشاء السرى» لليوناردو دافينتى . وقد ذكر له الخراس الذين يعرضون اللوحة ان نابليون نفسه قضى عدة ساعات جالسا امام تحفة دافينتى في استغراق عميق . ومد تامل كيبرينسكى في «العشاء السرى» هذا الفنان بايمان جديد في قواه . فكتب :

«عند مشاهدة ابداع عبقري تتولد الجرات التي تعوض في لحظة واحدة عدة سنوات من التجربة» .

وفي مسرح ميلانو استمع كيبرينسكى لأول مرة الى «الفيلوت السحري» لموزارت .

وملأته بالاعجاب الاصوات الصاقية لموسيقى موزارت ، تلك الاصوات الشبيهة بما تصدره الابواق الفضية . كان كيبرينسكى يريد ان يجد في موسيقى موزارت تبريرا لنفسه ، ذلك لان مبدع هذه الموسيقى الزينية هو موزارت المتقلب النزوات ، النزق كامراة ، والذي كان يقضى ليلاليه في فحلات السمر والمغامرات . ولكن كيبرينسكى لم يكن يعرف ان موزارت لم يدع موسيقاه قط تخضع لنجاح رخيص .

دخلت عربة السفر روما في ساعة متأخرة من المساء . فقد تأخرت في الباني ، حيث قام رجال الجندمة الكسالى بتدخين اشياء المسافرين بالكبريت للتعقيم . فقد كانت الكوليرا تستشري فيما حول روما .

وحين هدأت دمدمة العلاجات على العادة الحجرية ، سمع كيبرينسكى خرير الماء الطرى في نافورات المدينة . كان الماء يشرق ويشدو مالئا الليل بوسوسة منومة . وخلق قلب كيبرينسكى بشدة . قادوه الى غرفة معتمة معقودة السقف في فندق ، واشعلوا الشموع .

اطفاها على الفور ، وفتح النافذة على مصرعها . كان الليل يخيم على روما مهيبا كالماضى السحيق . وبدأ وكان الاطالسة يرفعون السماء الليلية على اكتافهم المريضة ، ومن تعبه يتوخون اكثر فاكثر نحو الارض مقربين التجوم منها .

كانت المدينة للغز ترقد تحت قدمي الفنان . ظل كيبرينسكى يمعن النظر طويلا محاولا ان يميز الاطلال العظيمة ، وفجأة اعترته رعدة - ارتفعت في الظلام قبة هائلة ثقيلة لكاتدرائية اكثر حلكة من الليل . لقد كان ذلك صعيد القديس بطرس .

واحسن كيبرينسكى بالغوف . فقد عادت الى ذاكرته سنوات بطرسبورغ الاخيرة . وشريك التعب الضاحي عليه افكاره . وفكر كيبرينسكى وهو يبتعد عن النافذة : «الم استنفذ نفسي بالعربة في بطرسبورغ ؟ وهل لي من الطاقة ما يكفي لمتابعة ما

يداته بنجاح كبير ؟ وهل سابلغ ذرى رافائيل ؟ ولكن بلوغ ذلك ضروري .

«لن !» قال شخص بوداعة في الظلام وراء النافذة .

التفت كيبرينسكى بسرعة . لم يكن ذلك غير ناقوس كنيسة ثقيل يرن معددا الساعات .

«لن !» كرر الناقوس ، وسكت ، الا ان الظلام ظل وقتما طويلا يطن من صوته النحاسي .

كانت الساعة الثانية ليلا . وبارحت كيبرينسكى قواه ، فغفا دون ان يخلع ملابسه .

وفي الصباح غمرت وجهه سماء روما الكثيفة ، وملا الغرفة هوائها الأزرق . وترنمت النافورات وقرعت النواقيس . وفي الاسفل ، في الساحة المكتظة كان الايطاليون باعسة الخضروات يتشامتون ، ويزعق سواقو الخمر باعلى اصواتهم .

اغتمسل كيبرينسكى بسرعة ، وصبط السلم صافرا ، واغتملط بالحشد الزاهي المراوح امام عربة الكاردينال الحمراء .

كانت الريح تهب فوق روما تسوق سحباً جدياً منقوشة تماما كما في لوحات عظماء الفنانين القدامى .

واشبل كيبرينسكى الذي سمعته الشهرة سبيله في روما المنعزلة .

مع كل يوم كان يزداد يقينا بأنه ليس في مقدوره بلوغ ذرى رافائيل . وعانى من الشعور الذي وصفه غوغل بقوله : «وشمخت امامه بهجمة مبدعات الريشة الجبارة على الجدران المسودة مبتعدة اكثر فاكثر عن ان تبارى او تحاكى» .

ما هو السر في رافائيل ؟ واين يكمن السحر في الاساطين القدامى ؟ وكيف يكشف عن هذا السر ، وكيف تنقل الى لوحاته خفة ريشة الآخرين ؟

لم يكن كيبرينسكى يعرف ، وكان يريد قهر روما ، كما قهر

بطرسبورغ قبل وقت غير بعيد . وكان على عجلة من امره ، ولهذا سار في اسهل طريق .

كانت لوحات رافائيل مرسومة برهافة وانسياب . وعسزم كيبرينسكى على ان يرسم اعماله بعناية مثل رافائيل وكوريجيو . فكانت تخرج جافة ميتة . لقد خان الفنان نفسه . وكانت عيناه كما لو انها لم تكونا تريان الالوان الحية .

وبدلا من الصور العظيمة اخذ يرسم تكوينات مضجرة للمسيح محاطا باطفال ، ورؤوس حلوة لفجريات صغيرات غرؤن في شعورهن ورودا .

كان يريد ان يقهر روما ، ولكنه لم يكن يعرف روما .

ذات مرة سمع كيبرينسكى اغنية تغنى بمرح في الشارع عن برونوف ، ولاول مرة من الحسد قلبه . فان روما - روما الخالدة - كانت تغنى اغنية عن رسام روسي شاب ، لا عنه ، لا عن اوديسيت اللامع .

كان كيبرينسكى غريبا على روما . طلب اليه معرض اوفيسى للصور في فلورنسا صورة شخصية له . ولكن ذلك قليل على كيبرينسكى . فقد عرف الكثيرون الصورة . ولكن ليس روما كلها .

كان كيبرينسكى يريد ان يكون لامعا لا في الرسم فقط ، بل وفي الحياة اليومية ايضا . كان يعلم بان يتعقبه المجد الهائل في كل مكان - في العائلات والقصور ، في الفاتيكان والاكاديميات ، وسط الرومانسيات الفانتاز والرسامين الحاسدين - ويصيب الرؤوس بالدوار ، ويهيبه الغنى والرقاه والحب والتبجيل .

في روما حل بالنسبة لكيبرينسكى اوان الاختيار الاخير بين الحياة الصارمة لفنان حقيقي وبين العيشة المذهبة لرسام على الموضة . واختار كيبرينسكى الامر الاخير .

في ذلك الوقت كانت الحرب قد مرت ذوبتها ، ونفى نابليون الى جزيرة مقفرة في المحيط . وهدأت تعود الثورة في هواء اوربا الدابل .

وكانت الرومانسية تحتضر دون أن تجد سندا في الحبيسة المحيطة . وحل تشيتشيكوف وخليستاكوف محل الابطال السابقين والنساء الشاحبات من الرقة . لقد كانت الرومانسية تحتضر وكان يحتضر معها كبيرينسكى كفنان .

وسرعان ما وضع كبيرينسكى من الرسامين الروس الذين كانوا يعيشون في روما .

كانوا يخردون كالسنان الايام كلها بلا انقطاع وراء مساند الرسم في غرفهم الضيقة ، وفي الاماسي يملأون الحانات في ساحة اسبانيا داخلين في نقاشات لا تمرة فيها وامامهم نبيذ رخيص .

كانوا يرسلون لحاصم ليشبهوا اساطين عصر البقعة ، ويلقون مآطرهم على اكتافهم ياهمال ، ويحلمون بعيدا كانوا في ويمرضون بحمى روما «ترتسينا» ، ومن وقت لآخر يحتضرون من السل . فقد كانت روما مهلكة بالنسبة للشماليين .

ولم يجذب كبيرينسكى الا الى روسيين ، هما بـريولوف والسلول الخولي تامارينسكى . ولم تنعقد الصداقة مع بريولوف فقد صمت هذا بصورة مكثرة وهو ينظر في اعمال كبيرينسكى الأخيرة في إيطاليا . وقد فسر كبيرينسكى المتوجس ذلك بالصدمة . وصمت تامارينسكى ايضا ، ولكن لم تكن في عينيه اداة . انه حتى في روما كان يلف رقبته الهزيله بلقاح ، ويشكى من رطوبة الليل ، وفي الاماسي كانت الريح تحمل رائحة المستنقعات من كامبانيا .

كان تامارينسكى ابن شماس . وقد مرق ابوه نفسه وهو يرتل الانجيل في القدايس * في حضرة الامبراطور بارل . وكان اصداق تامارينسكى يزورون الى هذا الطرف صفة الرسام الراهبة ، وقد ولد بعد هذا الحادث بسنة .

* جمع قداس - المهرج .

٤٣ كان تامارينسكى متصاحبا مع النحات الدنماركي الشهير ثورفالدسون ، المناصر للنحات الايطالي كانوفا ، والذي كان يعيش في روما في ذلك الحين .

وكان ثورفالدسون قد فرغ لتوه من تمثال نصفي للورد بايرون . وكانت روما كلها تتحدث عن زيارة هذا الشاعر الانجليزى للمدينة قبل وقت وجيز .

وكان كبيرينسكى يحتفظ في قلبه منذ ايام بطرسبورغ بذكرى عن بايرون . وكان يسعى على القدر بمرارة انه جاء به الى روما بعد رحيل بايرون عنها . وكان يحسد حتى خدم الحانات الذين راوا البريطاني الجميل .

اقتح كبيرينسكى تامارينسكى بأن يزورا ثورفالدسون سوية لمشاهدة تمثال بايرون والتحدث عن الشاعر .

في ذلك الحين كان كبيرينسكى يرسم لوحات في مواضيع رمزية «تايوت اناكريون» و«الفجرية حاملة غصن الاس» . وكان يرسم بضمول محاولا ان يثير اعجاب الجمهور الايطالي بعدوبة الاثوان ونعومة لمسات الريشة .

واطربت اللوحات ، لا سيما «تايوت اناكريون» . حتى ان الشاعر الايطالي غوثي تغنى بها في ابيات غثة . ولكن كل ذلك لا يبل القليل ، فقد كانت الاطراوات تفتقر الى التأثير الصادق ، كما ان اللوحات نفسها كانت تفتقر الى لعبة الالوان الحية والريشة الطليقة .

وخلفت زيارة كبيرينسكى لثورفالدسون مראה غاية في القمعة وفرحا .

فقد كان الدنماركي الاشقر الشعر - الكسول والمهمل في العادة - غاضبا في ذلك المساء ومتفعلا .

بينما كان كبيرينسكى وتامارينسكى يصعدان السلم الحديدي الصغير الى استوديو ثورفالدسون وتب من الباب رجل يدين ، ومرق بكبيرينسكى يهوى بقبعته وجهه المرق ، وكاد يوقعه ارضا . وعرف كبيرينسكى في شخصه نحاتا إيطاليا كان مشهورا بتماثيله المصنوعة بعذافة والغالية من الحياة .

ونفحة افتتح باب الاستوديو على سمعته ، وظهر فيه
تورفالدسون .

- باسناني انحت المرمر خير من ان تنحت انت بالازميل .
صرخ بذلك في اثر النحات اللانذ ، وصفق الباب .

ترت كيبيرنيسكى قليلا ، ودق الباب بحذر . فتحت الخادم
الباب . كان تورفالدسون يدرج الاستوديو بسرعة . وكان
كاموتشميني - الرسام التاريخي المعروف في روما - يجلس على
الاركة وفي يده قبة مستديرة يضعك ناظرا الى
تورفالدسون .

- انا منهش كيف يمكن ان يضحك انسان مثقف في مثل
هذه اللحظة !

قال تورفالدسون ذلك والفتت ، وزايل الغيظ وجهه بسرعة .
وبعد دقيقة كان يصب النبيذ في الاكواب ، ويطرده كلابا شعشاء
كانت تخدش باظفارها صدارات الضيوف المخجلة .

وتعادتوا عن النحت بحيوية . وقال كيبيرنيسكى ان مرمرات
الفاتيكان ميتة ، ولا تترك التأثير الذي تتسم به ابداعات الفن
العظيمة .

- يا صديقي الروسي . - قال تورفالدسون ذلك ضاحكا ،
ناظرا الى النبيذ من خلال الضوء - يا صديقي الشهير ، اسبح لي
بان اريك في هذه الليلة هذه المرمرات ، وستغير حكمك
المستحق .

فهتف كيبيرنيسكى : - كيف ؟ في الليل ؟

قال تورفالدسون بمر :

- لا نريد ان نفشي سرنا قبل الاوان !

وايتسم كاموتشميني مجاملة .

وهتف تورفالدسون :

- لا تجزأ اهانة المرمر ! لا يمكن ان يكون هناك احسن من
المرمر للتعبير عن صفاء الجسم الانساني . وهو رقيق جدا بالنسبة
ليدي . وانا انحنى اجلالا امام ازميل كانوفا النبيل . لقد تعودت
منذ الطفولة على ان انحت التماثيل من الخشب ، وكنت اساعد ابي .

٤٥ واهي ايسلاندي ، نحات على الخشب في كوبنهاغن . وكان يصنع
تماثيل خشبية لمقدمات السفن . كان قنانا ردينا ، اسوده الخشبية
كانت شبيهة بكلاص سميننة ، اما ناريداته * فاشبهه ببائعات
السماك .

وضحك تورفالدسون .

- كان ابي مفتحا جدا لعدم عطاوة العمل له . وفي المساء
قبل عدة ساعات من مولدي كانت امي جالسة وراء المغزل . وكانت
ننتظر المخاض ، وكانت مشتتة الفكر فتسببت عقد الخيط على
المغزل . وهذا يعتبر عندنا ، نحن الدنماركيين ، فلا حسنا . وقد
قالت امي لابي بعد ان ولدت : «لا تحزن ، يا بيتر ، فقد نسيت
عقد الخيط على المغزل ، ومعنى ذلك ان ولدنا سيحلب لنا
السعادة» . فقال ابي : «انا لا اعرف معنى ذلك» . فردت امي :
«وانا ايضا لا اعرف . ولكنني اظن ان السعيد هو الذي يوفر
السعادة للآخرين» .

وصب تورفالدسون نبيذا لكيبيرنيسكى :

- اشرب ! جميع الامهات يخطئن حين يتحدثن عن اولادهن .
وقد اخطأت امي ايضا في تصورها عني . وانا اروي لك ذلك ،
يا صديقي الروسي الشهير ، لكي اورد كلمات امي الساذجة عن
السعادة . انا اقبطك . فلا بد انك انسان سعيد بلا هم . انا اعرف
اعمالك في بطرسبورغ . ولهذا اشرب . ولا تسألني عن تماثيل
بايرون النصفى . فانا لا اريه لكم .

- لماذا ؟

- سنتحدث عن ذلك في طريقنا الى الفاتيكان .

ونهض تورفالدسون ، وقال :

- احلوك الليل لدرجة تكفي لمشاهدة التماثيل القديمة .

وذهل كيبيرنيسكى ، وخرجوا . كان ليل روما مثقلا بالظلمة
والاضواء والدمدمة المتلاشية لعجلات العربات ، ورائحة الباصمين .

* واحدة ناريداه ، وهي حورية بحرية في
الاساطير الاغريقية . المترجم .

— ولماذا لا تريد ان ترى لنا شمال بايرون النصفي ؟ أمن المعقول اننا لا نستحق ذلك ؟

توقف ثورفالدسون عند حانوت فواكه ، واشمعل غليونه من شمعة سميكة مملوكة على المنصة . كانت حزم من الذرة اليابسة تتدلى بين عناقيد البرتقال . قال ثورفالدسون :

— لا تزعلوا ، يا اصدقاء لن أرىكم بايرون لأن هذا العمل ناقص ، ولا يعبر عن روح الشاعر . عندما دخل بايرون الى استوديواي سررت بشدة كما فعل الأطفال الايسلنديون بشمس الصيف بعد الشتاء . وكنت اغنى وأنا اعلم رغم ان بايرون كان وجهه طوال الوقت في حركة . ولم يستطع ان يسكن لحظة واحدة . وكانت تتغير آلاف التعابير من ذلك الوجه الجميل ، تماما كما كانت تتغير من شفطيه آلاف الكلمات المرحية تارة ، والحادة أخرى ، والحزينة تارة ثالثة . وقد لمحت له بذلك ، الا ان ذلك لم يجد . وعندما انتهيت من التمثال القى بايرون نظرة خاطفة عليه ، وقال : « انت لم تصوري ، بل صورت انفسا مرها . انا لا اشبه تماثلك » فسأله : « ما الضمير اذا كان الانسان سعيدا ؟ » فقال وقد امتقع وجهه من الفخ : « يا ثورفالدسون ، ان السعادة والرفاه مختلفان اختلاف المرمر عن الصلصال . والحقي أو ذوو النفوس الواطنة وحدهم يستطيعون ان يبحثوا عن الرفاه في زماننا . أمن المعقول ان وجهي خال من أى مبالغة تدل على المراءة والشجاعة وعذابات الفكر ؟ » انحنيت له واجبت : « انت على حق . لقد خائى ازميل . كنت مسرورا وأنا انظر الى راسك ، والسرور غشى على عيني » . قال بايرون : « سنلتقي مرة أخرى » وصافحني وخرج . وقبل أيام عرض على احد الاثرياء الروس ألف تسميخين ثمننا للتمثال .

فسأل كبيرينسكي بغيوية : — وماذا حصل ؟

— لا شيء . قلت له : « لو عرضت على ، ايها السيد ، نقودا لتعلم التمثال فقبلتها برغبة ، فانا لا ابيع اخطائي » .

وانذ ثورفالدسون يضحك . وصمت كبيرينسكي . فان كل ما قاله ثورفالدسون آله . فان هذا الدماركى قد مس جرحا مفتوحا .

وفكر كبيرينسكي : « وهل انا اقدم الآن السعادة للكثيرين ، كما كنت سابقا ؟ أمن المعقول ان الحقنى وحدهم يشيدون رفاصية حياتهم ؟ »

وقطع هذه الافكار وصولهم الى الفاتيكان . قدم ثورفالدسون للبوابة ترخيصا من الكاردينال .

وعلى ضوء شمعة شاحبة ساروا في القاعات المعبئة المرثة ، حيث تحيا منذ قرون التماثيل والفريسكات * واللوحات والنقوش القليلة البروز . وكان راهب عجوز اصلح يسير وراء ثورفالدسون . توقف ثورفالدسون وسط قاعة عريضة كانت الممرات فيها تلوح بلون ابيض باهت .

— ايها الاب :

نادى ثورفالدسون الراهب بصوت غير عال .

اقترب العجوز . تناول ثورفالدسون من يديه شمعلا لم يلاحظه كبيرينسكي من قبل ، وقرب منه الشمعة .

تصاعد لهب احمر نحو السقف ، والتمعت فجأة تحت الجدران تماثيل اضاءها النور الخافت .

وقال ثورفالدسون بصوت واطى :

— انظروا الآن :

وقف الفنانون بلا حراك . وتجمع كبيرينسكي في لعب النار النافض على الجدار الداغى* . وجاهد في ان يثبت في ذاكرته حركات الظلال . فقد كانت تضفى حيائية غير اعتيادية على وجوه الابطال والآلهات الممرية . واستولت عليه الرعدة الروحية التسمية منذ زمان والتي كان يعرفها منذ أيام بطرسبورغ .

سأل ثورفالدسون يصوت خافت :

— حسنا ، اليس الجدار يضيئ بالحياة ؟

اجاب كبيرينسكي : — يضيئ .

وكرر تامارينسكي ذلك ايضا .

* الفريسكو اللوحات الجدارية والسقيفة من الجص الملون . المترجم ،

— يا صاحبي ، بهذا الشكل فقط تولد النماذج من النحت القديم ، وتخلق في طوايا روحنا قوانين الهجارة .
وقف الفنانون بلا حراك . صمتوا . وهست نار المشعل مضينة القاعات المترامية .

لم يتم كيبرينسكي طوال الليل . كانت النواقيس تدق كما هي دائما ، وقلبه يتوجع من الدموع .
وسال كيبرينسكي نفسه : « أين وفي أي الطرق فقدت قوانين الهجارة ؟ وهل سأكون حرا من جديد ؟ » إلا أن هذه الفكرة غرقت في التعاس ، وفي رغبة البيتين القديمين المنسيين :

القلب الرقيق كله في شرام وجراح ،
يخلق من منتصف الليل حتى نجمة الصباح .

وغفا الرسام المتعب . وكان الفجر ينصدع فوق روما .
ولم تمر الوجة التي عانها في قاعات الغاتيكان دون أن تغلف اثرها . من جديد اخذ كيبرينسكي بنفس التأثر السابق يجعل في صورة الامير غوليتسين ، وهي من أكثر اللوحات شعبية في فن الرسم الروسي .

وصور كيبرينسكي بنفس النفاذ هذا الارستقراطي الصوفي ، الصديق الشخصي للامبراطور الكسندر .

وقد رسم كيبرينسكي هذا العمل في درجات لون زرقاء ومخملية وضاربة الى اللون البني . وكانت تشاهد من خلف الامير الشاب الجالس روما وقبة كاتدرائية بطرس ، واشجار داكنة في السماء المغطاة بسحب زعدية منوشة كما في لوحات الاساطين القدامى .
ورسم كيبرينسكي الصورة الثانية — للاميرة تشيرياتوفا — بالوان ناعمة براقة يمثل نعمة الحبيب الملقى على كتفي الاميرة .
ان كل ما تبقى في كيبرينسكي من اللغات اليومية مع النساء قد تجسم في مثال تشيرياتوفا — السهوم والركة ونقاء العفاف .

كانت هذه ، في الغالب ، اعمال كيبرينسكي الاخيرة ، اذا لم نحسب الصورة الرائعة لغوليتشوف-كوتوزوف وبعض الرسوم .
فان كيبرينسكي للمرة الاخيرة قد استعصر بريشته ومن اعماق مخيلته ايطاليا ونساء مجريين ومحبوبات ، وكانوا قد فارقوا الحياة الحقيقية . وكان ذلك آخر توهج قبيل النهاية .

وبعد ذلك راح كيبرينسكي يرسم اشياء حلوة المظهر ، زائفة — اصحاب اطيان صاحبات ابهة كاذبة ، واثرياء مضجرين ، ممثلي الاعيان اللامبالين . وحاول ان يستبدل السمات الحادة السابقة بتصوير تفاصيل الفراء . فقد كان يظن بسذاجة ان الثياب والخواتم والمقاعد الوثيرة والغلايين يمكن ان تقول عن الشخص أكثر مما كانت تقوله من قبل ريشته الموهوبة .

واستبدلت حركة الاشخاص الحية في الصور باوشاع متخشبة بلهاة . واصبحت الاصباغ قذرة كدرة تصيب العيون بالغلثانة . وانالت الطلبيات بالمئات . وتراكمت في جرار المكتب الاوراق النقدية اكواما ، ورن الذهب .

في ذلك الحين وقع حادث غامض التقى ظلا اسود على كل حياة كيبرينسكي التالية .

بعد البحث وجد كيبرينسكي للوحته «تابوت اناكويون» موديلًا جميلة . وكانت لها ابنة صغيرة تدعى «ماريوتشكا» . وقد رسم كيبرينسكي الام والابنة معا .

وذات صباح وجدت الموديل ميتة . ماتت من الحروق . كانت تغليها جنفاصة مملئة بزيت التوربينتين ومحرقة .

وبعد بضعة ايام توفي في مستشفى المدينة «سانتا سيبيريتو» خادم كيبرينسكي ، وهو ايطالي شاب جسور ، بمرض غير معروف . وسرت في روما شائعات مبهمة . واكد كيبرينسكي ان الخادم هو الذي قتل الموديل . وبدأت شرطة روما المتروانية التحقيق بعد وفاة الخادم ، وبالطبع ، لم تثبت شيئا .

وصار اهالي روما وبعدهم بعض الرسامين يقولون ان الذي قتل الموديل هو كيبرينسكي وليس الخادم .

وانقلب رومًا على الرسام . وعندما كان يخرج الى الشارع كان الصبيان يرمونه بالحجارة من وراء الاسيجة ، ويصفرون ، امسا الجيران - من ارباب الحرف والباعة - فكانوا يهددونه بالقتل .

ولم يحتمل كيبرينسكى الملاحقة ، فهرب من روما الى باريس . قبل مغادرته الحق اليتيحة الصغيرة ماريوتشا بدموسة للفتيات اليتيمات ، «كونسرفاتور» وعهد بها الى راهب كاردينال . وترك نقودا لتربية الفتاة ، وطلب الى بعض الرسامين الذين لم يصدوا عنه بعد الاهتمام بها ، وبإبلاغه بمصيرها .

في باريس لم يقبله الرسامون الروس الذين كانوا اصدقاءه في السابق . فان الشائعة عن القتل قد بلغت هذه المدينة ايضا . وكانت الابواب تصفق امامه عداوة . واستقبل المعرض الذى اقامه في باريس بعدم اكتراث . ولزمت الجرائد الصمت حوله .

لقد نشبت كيبرينسكى من المجتمع ، فانطوت نفسه على منساة . لم تكن هناك من عودة الى ايطاليا . وباريس لم ترد ان تلتفت اليه . ولم يبق في الدنيا غير مكان واحد يمكن ان يلوذ به كينسى الايام الرهيبة ، ويعود الى العمل بالريشة من جديد . وكان هذا المكان هو روسيا ، الوطن المهجور الذى شهد تفتحه ومجده .

وفي عام ١٨٩٣ عاد كيبرينسكى الى بطرسبورغ متعبا مهنيا .

اخذت سماء بطرسبورغ الرطبة تدمل الجراح ببطء . كان الاصدقاء لا يعرفون عم يتحدثون . ولم يستنطق احدهم كيبرينسكى حول ايطاليا . وهتافاتهم المتكررة المرححة عن عمد عند التقائهم به «ياه ، يا اوريسيت ، انت ما تزال كما كنت !» كانت تضايقه مضايقة فتاة .

وادرك كيبرينسكى ان الصداقة تمنى الونى من طول الفراق . كان العاضى يذكر بحسرة ، واحيانا بعدم اكتراث وضيق . والحدائق والنيقا اليابدة والسياء فقط بقيت كما كانت ، وكانت صداقتها لا تنفصم وخالدة . اذ لم تكن تطلب مشاعر مقابلة .

واشتغل كيبرينسكى متلقيا طلبات معتبرة ، وتردد على البلاط ، حيث رسم صورة عن التمثال النصفى الذى نحتة ثورفالدسون للامبراطور الكسندر الاول ، وكان قد مضى على وفاته وقت قصير . وبين الحين والآخر كان راعو كيبرينسكى واصداؤه يزورونه . ولكن كل ذلك لم يكن يبسل الغليل . زال البريق من عيشه ولاح فيها ما ينم عن القلق ، وضعف صوته . وفي الصباح كان الرسام يستلقى ساعات في السرير غير مفكر بشئ ، وغير مصمغ الى شئ .

واحيانا كان كيبرينسكى ، وهو يلقي على القماشه اونا رماديا او ابيض ورديا كما لو انه لم يلاحظ درجته اللونية يلقي الريشة فجأة على الارض بضراوة ، وينتزع مطرته من المشجب ، ويخرج راكضا الى الشارع . وكان يسير غير متنبه الى الناس الى اطراف المدينة ، حيث كانت بيوت صغيرة كابية تتعفن في الضباب ، ولا يعود الا في الليل .

وكان ذلك يحدث كلما كان يذكره بايطاليا شئ من الحياة البطرسبورغية المحيطة به ، وكان ينتابه كوجع مضى في القلب ، وبشكل متزايد حين الى الهواء المشرق ، والى الاعمدة القديمة الساخنة من الشمس ، والى رائحة الياسمين . وكان كيبرينسكى يرى اصدقاءه بعناد غير مفهوم الصور التى رسمها في ايطاليا ، ويطلب بالبناء عليها . وكان كل ما عمله في ايطاليا يبدو له رائعا . كان الاصدقاء يتجهون ، ويرفعون اكتافهم .

وكان كيبرينسكى آنذاك يرسم لا بشكل جيد ولا ردى ، ان شيئا انطلقا في داخله . وذات مرة جاء اليه رسول بدعوة من بنكندورف يطلب فيها هذا الكونت من كيبرينسكى ان يرسم صورة لطفاله .

مز " كيبرينسكى ذراعه ، وواق . فقد تساوى لديه الآن ان يرسم بوشكين او بنكندورف ، كيوخليكي او اراكتشيف . اذ كان كيبرينسكى يحاول اخفاء ضعفه باستغفال متكلف ، ويسمى الى ان يطرد من ذاكرته الكلمات التى قالها منذ سنين عديدة حين نصح بان يرسم صورة اراكتشيف :

— ينبغي ألا يرسم بالألوان بل بالوحل والدم ، ومثل هذه الأشياء لا توجد في لوحة الواني .

من هذه السنوات الأخيرة التي قضاهما كيبرينسكي في بطرسبورغ لا تخط على ذاكرته إلا حادثان : فيضان عام ١٨٢٤ والعمل في صورة بوشكين .

في يوم الفيضان لم يذكر كيبرينسكي إيطاليا مرة واحدة . في الصباح استيقظ على قرقعات كصف المدافع هزت الجدران . وكانت الريح تصفر في الدهايز المظلمة للبيت الخالي . فتح كيبرينسكي باب الرسم على مصراعه وأخذ يضعك ، فقد هبت عليه فورا وهو ما يزال حارا من النوم رائحة مياه البحر . ووراء النوافذ كانت سماء متلبدة سوداء تنطلق نحو الشرق بلا انقطاع .

— زوبعة !

هتف كيبرينسكي ، وكفى نحو النافذة .

كانت الزوبعة تعربد فوق بطرسبورغ مثل شباب عائد . وكان مطر نادر يسوط النوافذ . وكانت النيفا تنفتح أمام الاضمار وتطفع عبر السدود الغرائبية . وتراكض الناس على طول البيوت واضعين ايديهم على قبايعهم والريح تنفق بمعاظهم السوداء . وكان ضوء غامض خبيث وبارد يتضامل مرة ويتوهج اخرى حين كانت الريح تشر فوق المدينة دثار السحب .

هبط كيبرينسكي الى الشارع . كان قصف المدافع يتردد بفرع وتكرار متزايد . انطلق فرسان ميلتون وثبا على الارصفة الفارقة نائرين الرشاش بصخب . والزوارق المصمعة تتراجع على مرابطها قرب الاسيجة الحديدية . كانت النيفا تسيل كتلة من الماء العديدي ، وتهدر هديرا مريعا عند دعائم الجسور . وكانت البيوت مضاعة بالشعور .

وداعبت تشوة غامضة نفس كيبرينسكي — كان يرتعش من البرد والانفعال . وعاد الرسام عجولا الى البيت ، واشعل النار في السوقد الحديدى المستدير ، واختطف الألوان . ما هو افضل شيء ينقل به لون هذا اليوم الغزير المطر ؟ واختار كيبرينسكي اللون البني .

وخط الرسم بريشة وزدة مطرشة عصبية . وهكذا ظهرت لوحة «الفيضان» .

عندما رسم كيبرينسكي صورة بوشكين ، كان هذا الشاعر مشغول الفكر ، رغم أنه كان يحاول أن يمزح .

وقرر كيبرينسكي أن يظهر كل سحر شعر بوشكين لا في وجه الشاعر الذي كان في ذلك الحين متعبا ، بل ومصفرا بعض الشيء ، بل في عينيه واصابعه . فقد اعطى الرسام العينين من الصفاء والبريق والطمأنينة ما يعتذر على الانسان تقريبا ، واعطى اصابع الشاعر رهافة عصبية وقوة .

— انت تدهشنى ، يا اوريسى .

قال بوشكين ، وهو ينظر الى الصورة وقد كملت .

وذات مرة قرأ بوشكين لكيبرينسكي ابيانا عن إيطاليا وكانما قد تحسس حنين الرسام الى «بلاد الالهامات السامية» التي غادرها قبل وقت غير بعيد :

هناك ، حيث غنى توركاندو الجبار
وحسب الآن تتردد نماياته
في الظلام الايدي لوجج الادرياتيک .
هناك حيث رسم رافائيل ،
وفي ايماننا هذه بيت ارفيل كانوا
الحياة في المرمر المطواع .
وبايرون المعبد الصارم
كان يتعبد ويحب ويلعن .

اصفى كيبرينسكي مطرقا برأسه ممسكا بالريشة على القماشية . في ذلك الوقت كان يخطئ شفتي الشاعر ، وقد اخلت قراءة الشعر بخطما المغلق الشبيه جدا بخط شفتي شاب .

وقال كيبرينسكي دون أن يرتعش رأسه :

— الكسندر سميرغينييتش ، اود لو أخذ صوتك معي الى قبري .

— كفى ، يا اوريست — اجاب يوشكين ، وفتاة اخذت يهتف بصوت ناضل كذلك الذى تهتف به البائعات الفنلنديات — التوت ، التوت ، يا من يشتري التوت !
وضحك كييرينسكى ، وضرب الريشة على القماشية .

في عام ١٨٢٧ رحل كييرينسكى الى روما مرة اخرى . فقد كان يبدو له دائما ان المجدد السالف سيعود اليه في روما . ولكن الحياة كانت تقترب من النهاية ، والوهية قد دمعت .
وضجر كييرينسكى في روما . كان ينتظر احدا ، وتغيرات . كبرت ماريوتشا ، وصارت فتاة مشوقة حلوة . ووقع كييرينسكى في حبها ، ولكنه اخفى ذلك طويلا عن نفسه وعن ماريوتشا ، وعن اصدقائه القليلين .

ومن الضجر والقلق الغامض اخذ الرسام يماقر الخضرة . كان العمل يتعبه بسرعة ، وبدونه لا يحصل على نقود . فكان كييرينسكى يعمل مثل مئات الرسامين الايطاليين والفرنسيين الذين ينقلون نسخا من المائيل وكوريدجيو وميكالنجلو للاجانب الاغنياء . فكان غالبا ما يرسم ، حسب الطلب ، صورة لانس لا يتيروا اهتمامه ، ويتشاب من الملل . كانت روما كمهددها السابق ، رغم احتضار الرسام البطي . « نفس الريح الدافئة ترنح اعلى الاشجار ، ونفس رائحة الورد ، وكل ذلك هو الموت » .

وكانت ساعات الشفق المهيبة تتعرج ملتصبة كمن كانت من قبل ، والرسامون يخرجون لمشاهدتها من تل بينشيو . وقد احب غوغل الضوء الرهيب وعمرة امامى روما . وكان يشاهد الشفق مع الرسامين ، وتزهه العدة حين يتادونه فكان يهتف :

— لا تضايقوني ولو لحظة واحدة ان اكون انسانا رافعا في هذا العالم الخالي من الرفة .
وما برحت روائح العفونة والنبيلة تفوح من الارضيات الحجرية

٩ غوغل — كاتب روسى عظيم من القرن التاسع عشر . المترجم .

للحانات التى كان كييرينسكى يلتقى فيها بصديقه الجديد الرسام النقاش يوردان . كان يوردان يحب كييرينسكى ، ويسميه « النفس السحابة » .

وكان يوردان قضى السنين العشر التى عاشها في روما على نقش لوحة «التبلي» لرافائيل في الارضية الجارية لفرقة قرب طاولة النقش كان يحرك حفرة عميقة بقدميه . وكان غوغل يحب ان يحدث الرسامين عن هذه الحفرة . وكان الرسامون يجلبون غوغل ، ولكنهم كانوا يجلبون منه ، فقد كان هذا الكاتب لا يحب العشرة صموتا . في ذلك الحين كان ايفانوف قد رسم لوحته «ظهور المسيح للناس» . وكان كييرينسكى يرتاد الحانات ، ويحلم معه خيرا ! يطعم به الكلاب السائبة . وكانت الكلاب تسير وراءه قطعانا ، ولكن اصحاب الحانات لم يكونوا يسمحون لها بالدخول . وعند ذلك كانت تقبع عند الباب تنتظر بلهفة هازة ذيلها .

وكان اصحاب الطليات يفتشون عن الرسام مهتدين بقطعان الكلاب القابضة عند هذه الحانة او تلك . وكانوا يجدونه وراء طاولة صفت عليها الزجاجات . وكان دائما يطلب من النادل شمعة ، ويضعها امامه ، وقبل ان يمتسى النبية كان يطيل النظر اليه من خلال الضوء .

ذات مرة قال ليوردان :

— من المؤلف ، يا صديقي العزيز ، اننا لا نستطيع ان نرسم اللوحات بالنبية . والا فانا سنكون حينذاك قد ادخلنا الكثير من الضرر والزعشة في ميداننا .

اجاب يوردان الرقيق :

— ان اصباغك ، يا اوريست اذعوقيتش لا تتنازل للعبية النبية .

تعيس كييرينسكى بانزعاج ، واستدار . ثم قال بصوت كامد :

— ما كان اضحى في غير كان .

لم يكن كييرينسكى يعرف ما تبقى له ان يفعل في الحياة . لقد كان يعيش وحيدا ومغتصبا . واذ ذلك ارتكب كييرينسكى البعذب الغلظة الاخيرة بزواجه ماريوتشا . لم تكن الفتاة تحبه ، ولكنها

كانت متعلقة به كرجل مثقف لها من الفاقة والجوع . ولكي يتزوج كيرينسكي ماريوتشا اعتنق الكاثوليكية .

وسافر كيرينسكي مع ماريوتشا الى نابولي .

واضحت الحياة لفترة قصيرة اكثر اشراقا . فقد كان الرسام المريض الحزين يحس في كل ساعة بحضور إيطالية شابة حسنة الى جانبه . وكانت تقرا له الكتب عن تاريخ إيطاليا وإبحاها عن فن الرسم وأشعارا .

كان كيرينسكي يتابع كل حركة لها محاولا ان يقى ماريوتشا من اصغر المنغصات الدنيوية ويبعد عنها الملل .

وجرى اتفاق الفلوس بكثرة . وكان كيرينسكي من اجل كسب المال مستعدا لكل شيء . واخذ يرسم المناظر الطبيعية الحلوة التي كانت على البوصة في ذلك الوقت . وفيها يظهر بركان فيزوف داخنا ، ويبيع في بطرسبورغ استنساخات للوحات الايطاليين المشهورين ، ويتدلل امام الكونت شميريمتييف الذي كان يمدده بالنقود ، وكان يكتب له رسائل بانثية منظومة بالشعر وكأنه مضحك بلاط :

الصيف يوشك ان يعود
وانا بغير نقود .

وطلب من نيكندورف قرضا يميلغ عشرين الف روبل لمدة خمسة اعوام . والصح له بأنه كان ينبغي ان يقدد وساما على خدماته السابقة في الرسم ، الا ان بطرسبورغ صمتت .

وسار تدهور الفنان بعتمية لا مرد لها . ومن يعرف هل كان كيرينسكي يدرك كل عمق تعاسته الروحية التي يسببها ضعف الارادة والرض ورا . النجاحات الدنيوية وانعدام الاذواق والاراء الراسخة ؟

واذا لم يكن يدرك ذلك فانه على حال كان يشعر كيف كان يقوى في داخله انسان تافه وذليل ، ويتلاشى في ضباب الماضي مثال الشاب المعقري المرح ، ابن قرن الرومانسية .

في نابولي رسم كيرينسكي ، مستجمعا قواه الاخيرة ، صورة

منعمة بالشاعرية الرقيقة «غلينيشيف-كوتوزوف» . وقد برزت هذه الصورة وسط اعماله الرخيصة المتكلفة كآثار الفن الماضي . وسافر كيرينسكي من نابولي مع ماريوتشا الى فلورنسا وبولونا ، وعاد من هناك الى روما .

وكان ينظر بعينين خاملتين الى هاتين المدينتين الغاليتين المهيبتين ويتجول في الشوارع التي نما فيها العشب الزاهر دون ان ينساق مع الذكريات . فان سحر الماضي لم يعد الآن طوع بئانه . لقد كان ينشد السكينة والخبرة وساعات النوم الخالية التي تؤثر فيه تأثير الدواء ، وتساعد على نسيان رعب السنوات الاخيرة .

اقام كيرينسكي في روما في قصر كلودويس القديم . حيث كان يسكن الرسام الفرنسي لودين في زمانه .

وكان كيرينسكي يفرط في الشراب ، وفي كل ليلة كان يعود مسكران جالبا معه جلاّس الحانات العربيين .

يكتب يوردان : «ولان زوجته الشابة لم تكن تريد ان ترى الرسام العظيم في هيئة مزربة فقد كانت لا تأذن له بالدخول في الغالب ، فكان يقضي ليلته تحت واجهة بيتة ذات الاعمدة» .

في ليلة من تلك الليالي في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٦ اصيب كيرينسكي بنزلة صدرية . وقاوم المرض عدة ايام . ثم سقط طريح الفراش .

استدعت ماريوتشا الطبيب المعجوز ريكردي الذي كان يعالج جميع الرسامين الروس .

دخل هذا المعجوز الاصابع الجمل الحركة الشبيه بطائر محنط منير بعشى مشية ناطلة الى الغرفة الواطئة حيث كان يرقد كيرينسكي . وكانت البرودة تبعث من الجدران الحجرية العارية . التي ريكردي نظرة فيما حوله ، ورفع حاجبيه ، لم تكن معلقة في غرفة الرسام الشهير غير لوحة واحدة هي صورة لم تكمل لماريوتشا تصورها وهي جالسة قرب النافذة .

وكان كيبرينسكى فى هذيان الحمى .

وتراعى من غرف فاخرة ثانية صدى خطوات مستعجلة وكانت ظلمة كثيفة تستقر فى الاركان وفى الدهايز البحرية الطويلة . لقد كان السكن فى هذا البيت موحشا وباردا .

وتسمع ريكاردى المريض . كانت الريح الخريفية الليلية تعصف فوق روما ، والقصر القديم مملوءا بطنين مخيف وترنيم خافض ترسلها المداخل البحرية ، واصطفاق صفاقات النوافذ ، وصريف مصاريع الابواب .

نظر ريكاردى طويلا فى وجه كيبرينسكى الشاحب ، وازاح عن جبينه الشعر الداكن اللامع من العرق . وقال لماريوتشا :

— يا سنيورا ، زوجك مصاب بحمى صدرية . وضجيج الريح تعيقنى عن تسمعه . بكل دقة . انه فى حالة سيئة جدا . يجب ان يفصد الدم منه .

صبت ماريوتشا . وكانت تخاف البقاء وحدها مع رجل فى هذيان الحمى صار غريبا تماما فجأة .

وكان كيبرينسكى فى هذيانه يتكلم بالروسية . ولم تكن ماريوتشا تفهم شيئا تقريبا . واخذت تبكى . وافاق كيبرينسكى ، وترس فى ريكاردى ، وامسك يده ، وقال بخفوت شديد :

— (الكسندر سيرغيفيتش) * . وسالت الدموع على خديه غير الحليقين — شكرًا . . . كيف جئت من تلك المسافة البعيدة ، يا عزيزى . . . الليلة سيئة الطقس بهذا الشكل ، وانت لم ترد ان تتركنى . . .

اتحنى ريكاردى على المريض .

وسأل كيبرينسكى بهلج :

— من انت ؟ هل انت حلاق مطيب ؟

قال ريكاردى ببطء :

— انا دكتور . افق على نفسك . انا دكتور . تكلم .

* اى الشاعر الروسى العظيم بوشكين . المترجم .

قال كيبرينسكى بهدوء :

— اشعر بثقل فى دمي . الاصابع جمدت فى عروقي . اقص دمي ، فهو لا يدفئنى ، بل يبرد قلبي .

قال ريكاردى :

— رابع !

مس كيبرينسكى :

— لا اراك فاهيا . الناس العظماء النبلاء اللامعون فكروا وموهبة كانوا يهجدون اسمى . جوكوفسكى قبل راسى . وبوشكين نظم فى قصيدة ، والمسكرىون المشاهير اعتبروا يدى موثوقة كالتصال الفولاذية .

ورفع زراعته النحيلة ، واطال النظر اليها فى الضوء . اسرع ريكاردى بالضغط على كوع كيبرينسكى ، ووضع طاسة قصديرية تحته ، وغرز فى الجلد مشرطا حادا . فانجس دم داكن .

— غفرانك ، يارب — قال كيبرينسكى ، وزفر زفرة عميقة . — لا احد يعرف . . انا وحيدى اذكرها ، الكلمات العلوة ، حب قلبي . وبعد ان صمت برهة قال خافت الصوت :

القلبا الرقيق كله فى ضرام وجراح ،

يخفق من منتصف الليل حتى لجمة الصباح .

ومرة اخرى سألت الدموع على خديه .

— يا اصداقائى !

هتف كيبرينسكى فجأة وبشكل وحشى . وتعد على القرائش . انكفات الطائفة القصديرية ، وسال الدم منها على المفرش والوسادة — يا اصداقائى .

وسقط على القرائش ، على بقع الدم ، واخذ وجهه يمتقع ببطء وجلال . كانت الشموع ترتعش بهدوء . ومس ريكاردى شففى كيبرينسكى بخده .

كان القصر القديم يردد عزف الريح مثل فرقة موسيقية وترية هائلة تعزف قداس الموت خفية .

٦٠ وترامي في القاعات الخالية صدى خطوات عجل . ودخل
ثورفالدسون مسرعا - وراى وجه كبيرينسكى المنحول من المعاناة ،
من آثار الرذائل والعلل - وجهها أكثر روعة من مرمر التماثيل
القديمة .

وشلخ ثورفالدسون قبعته ، وركع على ركبتيه امام جثمان
كبيرينسكى ، وضغط جبينه على اليد المتدلية من السرير .
وكانت ريح الخريف تعصف فوق روما .

١٩٣٦

اسحاق
ليفيتان





كانت يدا الرسام سافراسوف الثلجيتان ترتجبان ، فكان لا يستطيع ان يحتسى قذح شاي دون ان يسكب منه على خوان المائدة الخشن . وكانت رائحة الخبز والفودكا تفوح من لحية الرسام الشيباء التي لم تمسها يد العناية .

كان ضباب آذار يخيم على موسكو مثل دخان يمامي يرسله سماور . وكان الوقت غسقا ، وكان الجليد الذي طال رفاده يتقطر في انابيب التصريف القصديرية . فكان يشغل بقرعة ، ويتشتم مخلقا اكرواما بما يشبه البلور الصغرى الازرق . وكان هذا البلور يتصدع تحت الاحذية القذرة ويتحول في الحال الى خنفساء روث . كان رنين اجراس عيد الصيام الكبير يتردد حثوثا فوق المستودعات الخشبية والازقة المسدودة في موسكو القديمة ، عوسكو الثمانينات من القرن الماضي .

كان الرسام يحتسى الفودكا من قذح صار رماديا من القدم . وكان ليفيتان تلميذ سافراسوف - وهو صبي تعيل في سترة مرقعة ذات مربعات وبنطلون رمادي قصير - يجلس وراء المنضدة مصغيا الى سافراسوف . وكان سافراسوف يقول :

- ليس لروسيا المعبر عنها - نحن نخجل من وطننا كما كنت اخجل وأنا حديث السن من جدتي الفقيرة . . . كانت عجوزا وديعة عيناها الحمراء ترفان على الدوام ، وعندما توفيت خلفت لي ايقونة سيرغي رادونجسكي . وقالت لي في كلمتها الاخيرة : «اسمع ، يا حفيدي ، تعلم لترسم بشكل يجعل الروح كلها تبكي من جمال السماء والارض» . اما في الايقونة فقد رسمت اعشاب وزهور - اسط زهورنا التي تنمو في الطرق التي غطتها الاعشاب ، وبخيرة نما فيها الحور الرجراج . لقد كانت امرأة على هذا القدر من الدهاء ! وفي ذلك الحين كنت ارسم بالالوان المائية للبيع . وكنت احملها الى المتاجر في الصغار في ساحة ترويا . وما كنت ارسمه اخجل ان اتذكره . قصور مترفة ذات ابراج ، وبراك يسبح فيها جمع وردى . ظاهية وغار . ومنذ الصبا حتى سنرات الشيوخة كان علسي ان ارسم اشياء تختلف تماما عما كان يكمن في نفسي .



صحت الصبي شيئا . اشعل سافراسوف مصباح الكيروسين .
في غرفة الجار صلصلت خيطة الغراء بالمزلاج ، وانثبا كناري
يصبح .

نحى سافراسوف القندح الفارغ بحركة لا تصميم فيها .

- لن تستطيع ان تحصى وتعدد المشاهد التي رسمتها
ليبيترهوف * واورانينباوم * . نحن ، المعوزين ، كنا ننعنى اجلا
اهام العظمة . واحلام مبدعى تلك التصور والجنائن كانت تبث فينا
الرغبة . فاننى لنا بعد هذا ان نلتفت ونحب حقولنا الرطبة ،
والاكواخ المائلة والاعراش والسماء الواطئة . انى لنا !

وشمر سافراسوف ذراعه ، وصحب قدحا آخر ، وادار طويلا
باحصائه الجفاف . كانت الفودكا تترج من كركبة العربات المارة
في الطريق طارقة اياه بسنابك خيولها . وشرب سافراسوف
اختلاسا ، وقال غاصا بشرايه :

- في فرنسا يعمل الفنان الرائع كورو . استطاع ان يستكشف
سحرا في الضباب والسماء الرمادية ، في المياه الخالية . واهى سحر !
اما نحن . . . فعميان ، على ما يبدو ، لا يسر العالم عيوننا . نحن
ايوم ، ايوم ليلية - قال ذلك بغيظ ونهض - عشو * * * تفاهة
وعار !

وادرك ليفيتان ان الوقت قد حان لخروجه . وكان يريد ان
يصيب شيفسا من الطعام ، ولكن سافراسوف التمثل نسي في غمرة
الحديث ان يسقى تلميذه شيئا .

خرج ليفيتان . كان حوذية العربات يسرون قرب عرباتهم
مازجين الثلج بالماء متبادلين الشتائم . وفي البولفارات كانت تنف

* اسم قديم كان يطلق على «بيتردوريتس»
وهي مجموعة قصور على الخليج الفنلندي يعتبر شاحية
لبطرسبورغ . المترجم .

* اسم قديم لعندة لومولوسوف الحالية .
المترجم .

* * * العشو : سوء البصر في الليل . المترجم .

الثلج تعلق على عساليج الاشجار الجرداء ، ومن الحانات يضرب
البخار الوجوه ، وكأنه خارج من منافس للثياب .

وجد ليفيتان في جيبه ثلاثين كوبيكا - هدية رفقاته في مدرسة
الرسم والنحت ، الذين كانوا من حين لآخر يجمعونها له لمرزه -
ودخل حانة . كانت الآلة الموسيقية ترن باجراسها وتمزق «على»
طريق كالوشسكايا القديم . مر نادل رث الهيئة بالمنصة وكسر
عن اسنانه ، وقال لصاحب الحانة بصوت عال :

- قطعة سيجق لليهودى الصغير مع خبز مغنول .

جلس ليفيتان الصبي الجائع المعدم - وهو حفيد ساخام من بلدة
كيبارتا في محافظة كوفنو - وراء مائدة في حانة موسكوفية محدودب
الظهر يتذكر لوحات كورو . كان الناس القذرو الثياب يصغيون
ويغنون اغاني باكية ، ويدخنون التبغ الرخيص القوى ، ويمضون
بصغير سائلا فائرا من صحن مثيرة مصوصة . وكان ثلج
الربط يلتصق على الزجاج الاسود ، والاجراس تتبادل الرنين بغير
ما رغبة .

جلس ليفيتان طويلا ، اذ لم يكن له ما يهرع اليه . فقد كان
ينام في غرف الصفوف الباردة في المدرسة في شارع مياسنتسكايا ،
ويختفى هناك من الحارس الملعب بـ«الروح الخبيثة» . وكانت اخته
التي كانت تعيش في بيوت الناس من بيت الى آخر - وهى القريب
الوحيد له - تطلعه بين العين والآخر ، وترفو السترة القديمة . كان
الصبي لا يفهم لماذا هجر ايوه البلدة الى موسكو ، ولا لماذا توفي
ايوه ثم امه بتلك السرعة تاركين ليفيتان واخته الى الضياع . لقد
كانت العيشة في موسكو صعبة عوشة لا سيما له ، بصفته
يهوديا .

- قطعة اخرى من الخبز لليهودى الصغير - قال النادل
لصاحب الحانة مؤرجعا رجله كالدمية - يبدو ان ربهم لا يطعمه
بشكل جيد .

اجنى ليفيتان رأسه بانخفاض شديد . كانت لديه رغبة في
البكاء والنوم ، كانت رجلاه توجعانه وجعا شديدا بسبب الدفء .
بينما ظل الليل يلتصق على النوافذ رقائق ثلج آذار السائل .

في عام ١٨٧٩ نكت الشرطة ليفيتان من موسكو الى البلدة الريفية سالتيكوفكا . فقد صدر امر قيصري يحظر على اليهود الاقامة في «العاصمة الروسية العريقة» . وكان ليفيتان في ذلك الوقت في الثامنة عشرة .

وقبما بعد يتذكر ليفيتان الصيف في سالتيكوفكا كاصعب صيف في حياته . فقد هيمن خر شديد . وفي كل يوم تقريبا كانت الزواجر العديدة تلبد النساء ، ويقصف الرعد ، وتقصف الريح بالحشائش الجافة تحت النواخذ ، ولكن لم تسقط اية قطرة من المطر . وكانت ساعات الغسق مضطربة بشكل خاص . كان الجيران في البيت الريفي المجاور يشعلون النور في الشرفة . وكانت فراشات الليل تضرب زجاج المصابيح سحابة وراء سحابة . وفي ساحة الكروكي تصادم الكرات . وكان طلاب المدارس والفتيات يفشون ويتشاجرون عند انتهاء اللعبة ، وبعد ذلك ، وفي ساعة متأخرة من المساء كان صوت نساء في حديقة يغنى اغنية عاطفية حزينة :

صوتي لك حنون وناعم . . .

في ذلك الحين كانت اشعار بولونسكي ومايكوف وابوختين اكثر شهرة من ايقاعات بوشكين البسيطة . حتى ان ليفيتان لم يكن يعرف ان هذه الكلمات من الاغنية العاطفية هي كلمات بوشكين .

كان في الامسيات يسمع من وراء السياج غناء المرأة المجهولة ، ويتذكر اغنية عاطفية اخرى عن «انتحاب الحب» .

وكان يود لو يرى المرأة التي تغنى بهذا الصوت الصداح الحزين ، ويرى الفتيات اللعابات الكروكي ، وطلاب المدارس المطاردون للكرات الخشبية بصيحات الانتصار حتى سدة السكة الحديد . وكان يود ان يفقه ويتخاب ويتلاف الكرة ، ويفشى حتى منتصف الليل ويسمع تهامس الطلاب المتفعل حول الكاتب غارشين الذي كتب قصة «اربعة ايام» التي منعها الرقابة . وكان

٦٩ يود ان ينظر في عيني المرأة المغنية - وعيون المختين دائما نصف منمضة ومنمعة بالنشوة الحزينة .

الا ان ليفيتان كان فقيرا ، بل ومعدما تقريبا . والسترة ذات المربعات قد تهرأت كلياً . وكبر الفتى عليها . كانت يدها المملختان بالصبيغ الزيتي تبرزان من الكفين مثل مغلي طائر . وتضى ليفيتان الصيف كله حافي القدمين . فابن يظهر بهذا المظهر امام الفتيات المرحات !

وعكذا كان ليفيتان يشتفى . اخذ قارباً وراح يطوف فيه في مجاميع القصب على بركة البلدة ، ويرسم دراسات . اذ لم يكن يعيقه شيء في القارب .

كان رسم دراسات في الغابة او في الحقول خطيرا . ففي هذه الاماكن كان من الممكن الالتقاء بمظلة زاحية لامرأة راقية تقرا في ظل اشجار البتولا كتابا للكاتب البوف الذي كان «على الموضة» آنذاك ، او مربية اطفال تقويه وهي تحتضن الاطفال . وما من احد كان يحسن الزاينة على الفتى بشكسل مهين بقدر هؤلاء المربيات .

كان ليفيتان يخفى عن انظار سكان البيوت الريفية ويشتاق الى مخنية الليل ، ويرسم دراسات . وقد نسي تماما ان سافراسوف في مدرسته للرسم والنحت قد تنبأ له بمجد كورو ، وان رفاقه الاخوين كوروفين ونيقولا تشيخوف كانوا في كل مرة يشتمكون على لوحاته في نقاشات عن فتلة المنظر الطبيعي الروسي الحقيقي . لقد غرق مجد كورو المتنقل دون اى اثر ، غرق في المرأة من الدنيا ومن المرفقين المتهرئين والنملين المحكوكين .

في ذلك الصيف رسم ليفيتان كثيرا في الهواء الطلق ، وبذلك اوصى سافراسوف . فان هذا قد جاء ذات مرة في الربيع الى المرسوم في شارع مياستنسكايا سكران . وفي سورة الغضب كسر النافذة المقبرة وجرح يده .

- ماذا ترسم ! - صرخ بصوت ياك ماسحا الدم بمشديل جيب قدر - دخان تينغ ؟ روث ؟ عصيدة بلا طعم ؟









وراء النافذة المكسورة كانت الغيوم تتسلق ، والشمس تستقر برقع حارة على القباب ، والزغب الوفير يتطاير من الهندباء البرية . في ذلك الحين كانت الهندباء البرية تنمو في كل افضية مونسكو . وصرخ سافراسوف :

— ادخل الشمس على الجفانصة ! — وفي هذه اللحظة كان الحارس «الروح الخبيثة» يتطلع من الباب بانزعاج — لقد سهوت عن الدفوات الربيعية ! البطح ذاب ، وسال في المنخفضات ماء ياردا . فلماذا لم ار ذلك في دراساتك ؟ واشجار اليزون تنفتح ، والأمطار هطلت وكأنها ليست ماء ، بل قضة نازلة من السماء . فاین كل ذلك في دراساتك ؟ عار وقفاة !

ومنذ ذلك التقرير القاسي شرع ليفيتان في العمل في الهواء الطلق . في البداية صعب عليه التعود على الاحساس الجديد بالألوان . فما كان يبدو في الغرف المظلمة سدخان التبغ ساطعا صافيا فقد في الهواء الطلق طراجه بطريقة غامضة وتغشى بغطاوة كدرة .

وسعى ليفيتان الى ان يرسم بحيث يكون ملموسا في لوحاته الهواء المحتضن بشفافيته كل فصل من عشب ، كل ورقة من شجرة ، وحزمة من قش . فقد بدا كل شيء فيما حوله مغاطا بشيء هادئ يشع زرقة ولعنا . وسمى ليفيتان هذا الشيء بالهواء . ولكنه لم يكن ذلك الهواء الذي تصوره . فنحن نستنشقه كحيز ونفس برائحته ، بالبرودة او الدفء ، بل ان ليفيتان احس كحيز بلا حدود لشيء شفاف كان يعطي لروحاته تلك التعممة القاهرة .

انقضى الصيف . وقل " اكثر فاكتر سماعة لغناء المرأة المجهولة . وذات مرة في غيشة المساء التقى ليفيتان بامرأة شابة عند باب سياج بيته . كانت يداها الضميتان تبدوان بيشاوين من تحت الدنلا السوداء . كانت الدنلا تحيط بكفي فستانها . غطت السماء سخابة رقيقة ، ونزل مطر خفيف . وكانت الزهور في الحدائق الصغيرة المحيطة بالبيوت تنفوح برائحة مرة . واذهبت الفوانيس على مؤشرات السكك الحديدية .

وقفت المرأة الغريبة عند باب السياج ، وحاولت ان تفتح مظلة صغيرة ، الا انها لم تنفتح . وفي آخر الامر نجحت محاولتها ، وصبهس المطر متساقطا على سطح المظلة العريضة . وسارت الغريبة على مهل باتجاه المحطة . لم ير ليفيتان وجهها ، فقد كانت المظلة تغطيه . كما ان المرأة لم تر وجه ليفيتان ، ولم تلاحظ غير قدميه العائيتين القدرتين ، ووفت المظلة لكيلا تتشربك بليفيتان . وفي القصد الخداع لحظ ليفيتان وجهها شاحبا بدا له مالوفا وجميلا .

عاد ليفيتان الى حجرته الصغيرة ، واستلقى . كانت السموع ترسل السخام ، والمطر يثر ، وفي المحطة ينتحب السكارى . ومنذ ذلك الحين نفذ الى قلب ليفيتان التوق الى حب الام والاخت والزوجة ، ولم يفارقه الى آخر ايام حياته .

في ذلك الخريف رسم ليفيتان «يوم خريفي في سوكونليكي» فكانت اول لوحة له ينبت من جنفاستها الخريف الرمادي والذهبي الحزين مثل حياة روسيا آنذاك وحياة ليفيتان ذاته بنكس متوجس من الدفء فيحرك قلب المشاهد .

امرأة شابة في ثوب اسود تسير على اكوام من الاوراق المساقطة في درب من دروب منزله سوكونليكي — نفس المرأة المجهولة التي لم يستطع ليفيتان ان ينسى صوتها ، «صوتي لك حنون وانعم .» . سميت وسط دغل خريفي وقد احاطتها هذه الوحدة باحساس من الكآبة والاستغراق .

ان «يوم خريفي في سوكونليكي» هو المنظر الطبيعي الوحيد لليفيتان الذي يظهر فيه شخص انسان ، وحتى هذا الشخص قد رسمه يقولاي تشيخوف . وبعد ذلك لم تظهر قط في لوحات ليفيتان شخص انسانية . وقد استعفى عنها بالغابات والمراعي والفيضانات المضطربة واكواخ روسيا البائسة ، المنكمشة المتوحدة .

وانتهت اعوام الدراسة في مدرسة الرسم والنحت . ورسم ليفيتان آخر عمل للدبلوم . يصور يوما غائما وحقلا ، وحزما من السنابل المحصودة .

التي سافراسوف نظرة خاطفة على اللوحة وكتب بالطباشير على ظهر اللوحة: «ميدالية فضية كبيرة».

كان مدرسو المدرسة يرهون جانب سافراسوف ، فقد كان ، وهو الدائم السكر ، الميال للجدال يعامل الطلاب معاملة التسدد للند ، إما إذا أقرط في الشراب فقد كان يحلم كل شيء ، ويزعج ناعيا على أغلب الرسامين المعترف بهم افتقارهم إلى الموهبة ، ويطالب بأن يدخل الهواء والرحابة والضوء إلى الجناصات . وقد حول المدرسون نفورهم من سافراسوف إلى تلميذهم المفضل ليفيتان . وعلاوة على ذلك كان الصبي اليهودي النابغ يفتن بعض المدرسين . فان اليهودي - حسب رأيهم - لا يجوز أن يتناول منظرا طبيعيا روسيا ، فان ذلك من شأن الرسامين الروس الإقحاح . واعتبرت اللوحة غير مستحقة للبيدالية . ولم يحصل ليفيتان على لقب رسام ، واكتفوا بأعطائه دبلوم معلم «حسن الخط» .

وبهذا الدبلوم البناس خرج إلى معترك الحياة واحد من أرفع رسامي عهده ، والصديق المفضل لتشيفخوف ، والمتغنى الأول بالطبيعة الروسية ، والحيى رغم كل ذلك .

علق اخوان تشيفخوف على السقيفة في القرية الصغيرة التي كان يسكن فيها ليفيتان لافتة كتب عليها «صندوق التسليف للتاجر اسحاق ليفيتان» .

لقد تحققت أخيرا الامنيات بعباءة بلا صوم . فقد انعدمت صداقة بين ليفيتان والرسام نيقولاى تشيفخوف ومع عائلة تشيفخوف ، وعاش ثلاثة فصول صيف بجوارها ، وفي ذلك الحين كانت أسرة تشيفخوف تقضى كل صيف في يابكينو على مقربة من نوفى يورسليم .

كانت أسرة تشيفخوف موهوبة صاحبة متفكة . ولا نهاية للمعانيات عندها . فان كل امر تافه ، حتى جيد الثوب او الزهرة في غاية لجمع القطر تتحول إلى حدث مرح . ومنذ الصباح على مائدة الشاي كانت تبدأ قصص غير معقولة وبدع وقهقهات ،

ولا تهدأ حتى ساعة متأخرة من المساء . وكل ميزة مسلية لانسان او كلمة مضحكة كانت تستولى على الجميع ، وتستخدّم حافزا للتندر والتضليل .

وكان ليفيتان النصب الأكبر من ذلك . فقد كان يتهم على الدوام بمختلف الجنائيات المدرة للضحك ، وفي آخر الامر شكلت عليه محكمة . واتخذ اتون تشيفخوف هيئة المدعى العام ، والى خطاب الاتهام . ووقع المستمعون من مقاعدهم من شدة الضحك ، ومنزل نيقولاى تشيفخوف دور الشاهد الاوله . وقدم ادلة وأهية وخلخل وتورط ، وكان شبيها بالرجل الصغير في قصة تشيفخوف «مجرم مع سبق الإصرار» ، وهو الذى كان يفك صوملة من السكة الحديد ليصنع منها ثقل لفادن لصيد السمك .

والقى الكسندر تشيفخوف - معامى الدفاع - مراعاة عالية للمقام من حيث التشثيل .

وقد هوجم ليفيتان بشكل خاص على وجهه العريى الجميل . وتشيفخوف في رسائله غالبا ما كان يذكر جمال ليفيتان . كان يكتب «سأتى اليكم جميلا كليفتان» و«كان حلو التقاطيع كليفتان» .

ولكن اسم ليفيتان اصبح نائفا ليس فقط بجمال الرجل بل وبالثقة الخاصة للمنظر الطبيعى الروسى . وقد نحت تشيفخوف كلمة «ليفيتانى» كنسبة واستعملها في محلها الدقيق جدا ، كتب في احدى رسائله :

«الليمة هنا اكثر ليفيتانية بدرجة كبيرة مما هى عندكم» وحتى لوحات ليفيتان كانت تختلف فبعضها اكثر ليفيتانية من غيرها .

فى بادى الامر بدا ذلك مزاحا ، ولكن مع مرور الزمن اضحى واضحا ان هذه الكلمة تتضمن معنى دقيقا ، فانها كانت تعبر عن جاذبية المنظر الطبيعى في وسط روسيا ، وهى الجاذبية التي لم يستطع ان ينقلها الى القماش الا ليفيتان وحده من بين جميع رسامي ذلك العهد .

وفي الفجر خرج ليفيتان مع اثنتون باقلوفيتش تشيخوف لصيد السمك في إيسترا . وكانا يختاران لاصطياد السمك شواطئ شديدة الانحدار نمت فيها مجاميع الشجيرات ، وجروفا هادئة حيث كانت تزدهر زفانيق الماء ، وتوسع الاسماك ذات الزعانف الحمراء جماعات . وكان ليفيتان يقرأ اشعار تيوتشيف همسا . وكان تشيخوف ينظر مدحرجا ويلعن همسا ايضا ، فان سمكة قد جذبت شصه ، ولكن الاشعار ارحبت السمك الجذر .

لقد حصل ما كان يحلم به ليفيتان وهو في سالتيكوفكا : نعب المطاردة ، ساعات الغسق حين يتبدل هلال نجيل فوق نباتات حديقة القرية ، النقاشات الضارية عند شاي المساء ، يسمات وارتباك النساء الشابات ، وكلما تهن الرقيقة ، والشجارات الحلوة ، وارتعاش النجوم فوق الاجمات ، وصيحات الطيور ، وصرير العجلات في الحقول ليلا ، والقرب من اصدقاء موهوبين ، القرب من مجد مؤثر ، والاحساس بالخفة في جسده اقلبه .

وكان ليفيتان يعمل كثيرا رغم الحياة المملوءة بسحر الصيف . كانت جدران سقيفته - بيت الدجاج سابقا - مغطاة بالدراسات من الاعلى الى الاسفل . وفي النظرة الاولى كان الانسان لا يجد فيها شيئا جديدا : نفس الطرق الملوتية المعروفة لدى الجميع المتلاشية وراء منحدرات التلال ، والمنايات الصغيرة ، والابعداد ، والهلال الرضاء فوق اطراف القرى ، والدروب التي داستها الاحذية اللبيفية وسط الحقول ، والسحب والانهار البطيئة الجريان .

لقد كان العالم المألوف يظهر على الجرفاصات ، ولكن كان فيه شيء خاص به لا يستطيع ان يعبر عنه كلمات الانسان الضئيلة . كانت لوحات ليفيتان تثير العالم كالم تذكرو الطفولة البعيدة بشكل مخيف والجاذبة ابدا في الوقت ذاته .

كان ليفيتان رسام الممثل الطبيعي الحزين . والمناظر الطبيعي حزين دائما حين يكون الانسان حزينا . ظل الادب والرسم الروسيان يتحدثان قرونا عن السماء الحزينة والحقول المنحولة

والاكواخ المائلة . «روسيا ، يا روسيا البائسة ، اكواخك رطبة لي ، واغانيك كالرياح عندي - كدموع الحب الاولى» .

ومن جيل الى جيل كان الانسان ينظر الى الطبيعة بعينين كدمها الجوع . وبدأت له مريرة مرارة مصيره ، مثل قطعة من الخبز الاسود العليل . فتحى السماء الاستوائية المتألقة تبدو للجائع غير حفية به .

وبهذا الشكل كان يتولد سم الانقباض المزمّن . وقد ابتلع كل شيء ، وحرم الاصباغ من سطوعها وتوتبها وقشائبتها . وظلت طبيعة روسيا الرقيقة المتنوعة زمنا طويلا تعتبر باكية جهما . واقتري الرسامون والكتاب عليها دون ان يعوا بذلك .

كان ليفيتان وليد الغيتو المجرد من الحقوق والمستقبل وليد الاقليم الغربى - موطن البلدات اليهودية الصغيرة البائسة ، وارباب الحرف المصدورين ، والمعابد اليهودية السوداء ، والضييق والضنك .

وطارد الحرمان من الحقوق ليفيتان طوال حياته . في عام ١٨٩٢ ابعد ثانية عن موسكو ، رغم انه كان رساما مشهورا في روسيا كلها . واضطر الى الاختفاء في محافظة فلاديمير ، الى ان نجح اصدقائه في الغاء الابعاد .

كان ليفيتان كئيبا كما كان كئيبا تاريخ شعبه ، اسلافه . وكان يعبث في بايكينو متجذبا الى اللتيات والاصباغ ، ولكن في مكان ما في قرارة نفسه كانت تستقر فكرة ، هي انه مسن المينودين ، مطرود ابن جنس عانى من المطاردات الماحقة . وكانت هذه الفكرة احيانا تستحوذ على ليفيتان كليا . وحينذاك كانت تبدأ نوبات من الكتابة المرضية . وكانت تستند بسبب عدم رضاه عن اعماله ، بوعيه بان يديه غير قادرتين على ان تنفلا بالاصباغ ما ابدعته مخيلته الطليقة منذ وقت بعيد .

وحين كانت الكتابة تستولى عليه كان يورب من الناس . فقد كانوا يبدون له اعداء . وكان يقلب فلزا نافذ الصبر . وكان يكسح اللوان من لوحاته بحنق ، ويغتنى ، ويخرج مع الكلب

فيمتد إلى الصيد ، لا لكي يصطاد بل ليجوب الغابات بلا هدف . وفي مثل تلك الايام كانت الطبيعة وحدها تحتل لديه مكان الانسان القريب منه . فقد كانت تسرى عنه ، وتمس جبينه بنسمة مثل كب الام . وكانت الحقول في الليل صامتة ، فكان ليفيتان يستريح بهذه الليالي من حفاقة الانسان وفضوله .

وفي نوبتين من نوبات الكتابة هذه اطلق ليفيتان الرصاص على نفسه ، ولكنه بقي حيا . وفي كلتا الحالتين انقذه تشيخوف .

وكانت الكتابة تنقضي . ويعود ليفيتان الى الناس ، ويرسم من جديد ، ويجب ، ويؤمن ، ويدخل في الشريحة المعدة للعلاقات الانسانية حتى يتلقى ضربة جديدة من الكتابة .

كان تشيخوف يرى أن كتابة ليفيتان كانت بداية مرض نفسي . ولكن ذلك ، على ما اعتقد ، كان مرضا عضالا لكل انسان كبير متدلق مع نفسه ومع الحياة .

كان كل ما رسمه يبدو عاجزا . فقد كان ليفيتان يرى وراء الاصباغ الموضوعية على اللوحة الزائفا التي تقي واشد كثافة . ومن هذه الالوان ، وليس من الزيت في المعمل والكوبلت والكادميوم كان يريد ان يخلق المنظر الطبيعي لروسيا - الشفاف كهواء ايلول ، الاحتفال مثل دغل في فصل تساقط الاوراق .

ولكن الكتابة النفسية كانت تمسك يديه أثناء العمل . وظل ليفيتان لوقت طويل لا يقدر ولا يحسن الرسم بطريقة وضاعة شفافا . فكان الضوء الكأبي يستقر على اللوحات ، والاصباغ عيوسة ، ولم يستطع بأية وسيلة ان يجعلها تبتسم .

في عام ١٨٨٦ سافر ليفيتان لأول مرة من موسكو الى القرم في الجنوب .

في موسكو كان طوال الشتاء يرسم ديكورات للمسرح الاوبرا ، ولم ينقض هذا العمل دون ان يخلف أثرا لديه . فقد اضحى يتعامل مع الاصباغ اكثر جراءة . وصارت ضربة الفرشاة اكثر طلاقة . وظهورت الامارات الاولى لصفة ملازمة للفنان الاصيل - امارات الجراءة في التعامل مع المواد . وهذه الصفة ضرورية لجميع

الذين يعملون لتجسيد افكارهم ومثلهم . الكاتب يحتاج الى الجراءة في التعامل مع الكلمات ورصيد ملاحظات . والنحات في التعامل مع الصلصال والبرص ، والرسم في التعامل مع الالوان والخطوط . ان اؤمن ما ادركه ليفيتان في الجنوب هو الالوان الصافية . فالوقت الذي قضاه في القرم بدا له صباحا متواصلا ، حيث الهواء الذي استنشقنا أثناء الليل ، كما المنبسطة الجبارة في الوديان الجبلية ، كان من الثغارة بحيث كان يرى من بعيد الندى المتساقط من اوراق الشجر ، ويلوح خلال عشرات الاميال الزبد الابيض للامواج المقبلة نحو السواحل الصخرية .

كانت رحاب الهواء التي لا تحد تستقر فوق الارض الجنوبية مضيئة على الالوان حدة وبروزا .

في الجنوب احس ليفيتان ببلاء تام ان الشمس وحدها هي التي تسيطر على الالوان . واعظم قوة للرسم تكمن في الضوء الشمسي ، والندوة المتوحدة للطبيعة الروسية انما هي جيدة برمتها لسبب وحيد وهو أنها ذلك الضوء الشمسي ، الا انه مكتوم مار عبر طبقة الهواء الرطب وغشاء رقيق من السحب .

والشمس واللون الاسود لا يتجاوران . اللون الاسود ليس لونا ، بل جثمان لون . وقد عسى ليفيتان ذلك ، وبعد سفره الى القرم قرر ان يطرد من لوحاته درجات اللون الداكنة . الا ان ذلك ، في الحق ، لم يستجب له دائما .

وهكذا بدا النضال في سبيل الضوء الذي استمر سنين عديدة .

في ذلك الحين كان فان غوغ يعمل في فرنسا على ان ينقل الى القماش نار الشمس التي تحولت الى الذهب القرمزي لكرام آزل .

وفي ذلك الوقت تقريبا كان مونيه يدرس الضوء الشمسي على جدران كاتدرائية ووان . وكان يذهله ان الفنان الضوئي كان يضيء على كتلة الكاتدرائية انعدام الوزن ، فكان يبدو وكأن الكاتدرائية لم تبين من جسارة ، بل من كتل هوائية ملونة بتنوع وشحوب . وكان يقتضي الاقتراب منها كليا ، وتعمير اليد على الحجر ليعود المرء الى الواقع .

وكان ليفيتان ما يزال يعمل يتهيب . بينما كان الفرنسيون يعملون بجرأة وعناد . وقد أعانهم في ذلك شعور بالحرية الشخصية والتقاليد الثقافية والوسط الرفاقى الدافئ . بينما كان ليفيتان محروما من كل ذلك . ولم يعرف الشعور بالحرية الشخصية ولم يكن بإمكانه الا ان يعلم بها ولكنه حلم بها بعجز وانزعاج من المعيشة الروسية آنذاك ، كما لم يكن حوله وسط رفاقى ذكى . ومنذ الرحلة الى الجنوب انضاف الى كتابة ليفيتان المعاناة تذكر دافئى للالوان الباهية الدقيقة للشمس التي تحول كل يوم زهيد من حياة الانسان الى عيد .

في عوسكو لم تكن ثمة شمس . اقام ليفيتان في غرف نزل «انجلترا» المؤتمة في شارع تفرسكايا . وكانت المدينة خلال الليل تتدثر بطبقة باردة من الضباب هي من الكثافة بحيث لم يكن النهار الشمائى القصير يكفى لكى تنقشع . وكانت الغرفة مضاعة بمصباح كيروسين . وكان الضوء الاصفر يختلط بظلام النهار الرطب ، ويغطي يتقع قفرة وجوه الناس واللوحات المبتدأ بها .

وعاد اليوزس من جديد ، ولكن ليس لوقت طويل . فكان ليفيتان يضطر الى ان يدفع اجرة الغرفة لصاحبة النزل دراسات لا نقودا . وكان يستولى على ليفيتان خجل شديد حين كانت صاحبة النزل تضع النظارة الانفية ، وتماين «اللويحات» لتختار اكثرهما ملاءمة للبيع . وكان اكثر ما يفعل هو ان دممة صاحبة النزل كانت تتفق مع مقالات نقاد الصحف .

كانت صاحبة النزل تقول :

— مسميو ليفيتان ، لماذا لا ترسم لنا على هذه العرجة بقرة اصيلة ، ولماذا لا ترسم عاشقين جالسين تحت شجرة اليزفون هذه ؟ سيكون ذلك متعة للعين .

وكان النقاد يكتبون على هذا النحو تقريبا . فكانوا يطلبون ان يعيش ليفيتان المنظر الطبيعى بأسراب من البط والخيول وشخصى الرعاية والنساء .

كان النقاد يطلبون البط بينما كان ليفيتان يفكر في الشمس الرائعة التي لا بد آجلا او عاجلا ان تدفى روسيا في لوحاته ، وتضفى على كل شجرة بتولا قتل ولعمان معدن كريم .

وبعد القرم دخلت الفولغا الى حياة ليفيتان لمدة طويلة وبرسوخ .

كانت الرحلة الاولى الى الفولغا غير موفقة . كان المطر ينث رذاذا ، وهما الفولغا مشوبا بالكثرة . وكانت الريح تسوق على سطح الماء موجات قصيرة كثيفة . ومن المطر المضجر كانت نوافذ البيوت في القرية التي نزل فيها ليفيتان على الفولغا تسج دموعا ، وتتشعب الابعاد ، وكان كل ما حوله يتأكله لون رطب رمادى . وتالم ليفيتان من البرد ومن الطين اللزج على ضفاف الفولغا ومن استحالة الرسم في الهواء الطلق .

وبدا الارق . كانت ربة البيت العجوز تشغى وراء الجدار ، وقد حسدها ليفيتان على ذلك ، وكتب عنه الى تشيخوف . كان المطر يطبل على السطح ، فكان ليفيتان يشعل ، كل نصف ساعة ، عود نقاب ، وينظر في الساعة .

واختفى الفجر في خواتم الليالى الدامسة حيث كانت تهيمن ريح عدائية . وكان الدعر يستولى على ليفيتان فيمتصرون ان الليل سيطول اسابيع ، وأنه منفي الى هذه القرية القفرة ، ومقتضى عليه بان يسمح طوال حياته كيف تضرب اغصان البتولا الرطبة الجدار المصنوع من جذوع الشجر .

واحيانا كان يخرج في الليل الى العتبة ، فكانت الغصون تضرب وجهه ويديه بالم . ويشهد النطق في ليفيتان ، ويشعل سبكارة ، ولكنه يلقيها في الحال فقد كان دخان التبغ الحامض يشننج فكيه .

وعلى الفولغا كانت تسمح الضربات المتكررة لدواليب المراكب ، والباخرة القاطرة تومض بعصا ييجها الصفراء ساحبة الى ريبتسك في اعلى الفولغا الصنادل ذات الرائحة العطنة .

لقد بدأ النهر العظيم لليفيثان عتبة جسيم جاهم . ولم يكن الفجر يجلب ترويعا ، فقد كانت السحب تتلبذ قائلة وتنطلق من الشمال الغربي ساحبة على الأرض أذيال الأمطار السائلة . والرياح تصفر في النوافذ المموجة ، وتجعل الأيدي حمراء وتجمدها . وكانت الصراصير تترافض خارجة من صناديق الاصباغ .

ولم تكن لدى ليفيثان قوة الاحتمال النفسية . قال الى القنوط يسحب المتراض بين ما كان ينتظر وما رآه في الواقع . كان يريد الشمس ، ولم يجد الشمس ، واعته شدة الهياج ، وفي الفترة الأولى لم يكن يلاحظ حتى درجات الحرارة اللونية الرائعة في اللونين الرمادي واليمامي والتي يتصف بها الطقس الماطر .

ولكن الفنان انتصر أخيرا على العصايب . ورأى ليفيثان فتنة المطر ، وأبدع «عملية المطر» الرائعين : «غيب المطر» و«في السكون الدائم» .

اتم ليفيثان رسم لوحة «غيب المطر» في أربع ساعات . خلقت السحب ولون البيوتر * لماء الفولغا أضواء ناعمة . وهي عرضة الى الاختفاء في كل لحظة . لقد استعجل ليفيثان .

ان لوحات ليفيثان تتطلب تفحصا متأنيا ، وهي لا تبهر العين . انها متواضعة ودقيقة ، مثل أقاصيص تشيخوف ، ولكن كلما تمعنت النظر فيها أزداد غدوبة سكون الحواضر الريفية والأنهار المعروفة والدروب .

لقد احتوت لوحة «غيب المطر» كل معجز الفسوفات الممطرة في بلدة عند الفولغا ، برك المياه تلمع ، والسحب تتراجع وراء الفولغا مثل دنان منخفضة . وبخسار مداخن البواخر يستقر على الماء . والصنادل عند الشاطئ مسودة من البلب .

في مثل هذه الفسوفات الصيفية يطيب للمر ، الدخول الى اروقة البيوت الباقية ، وإلى الغرف الوائنة التي غسلت أرضياتها في الثو ، حيث اوكدت الصبايح ، والبديقة المهيمة تحف من وراء

* لون هو حصيلة موج التمديد والرماسي ونسب متفاوتة من النحاس وبعض البعادن الأخرى - البترجم .

النوافذ من القطرات المتساقطة وتفوح رائحة بزية . كما يطيب للمر الأصغاء الى عزف على بيانو قديم . فان إيقاعه المرتخية ترن رنين القيثارة . وشجيرة «فيكوس» داكنة واقفة في حوضها الى جانب البانوا . وطالبة مدرسة جالسة في مقعد مطبقة وجهها وهي تطالع تورغينيف . وقطع عجوز يطوف في الغرف ، وإذنه تختلج بعصبية ليسمح ما إذا كانت السكاكين تضرب في المطبخ .

وناتي من الخارج رائحة حصران ليفية . غدا ستقام سوق ريفية ، وتتوافد عربات على ساحة الكاتدرائية . وبأخرة تسير مع تيار النهر ، وتلحق بسحابة مطيرة غطت نصف السماء . وتنظر طالبة المدرسة في اثر الباخرة ، وتصبح عينها مضطربة واستعيت . فالباخرة متجهة الى مدن في أسفل الفولغا ، حيث المسارح والكثب والمقادات الواعدة .

وحول البلدة يحول الجودار الشعشاء مبللة ليل نهار .. ان شاعرية اليوم الماطر في لوحة «في السكون الدائم» قد انعكست بقوة اشد . وقد رسمت اللوحة على شاطئ بحيرة إودوملي في مقاطعة تفير .

من متحدر تل تبدو اشجار بتولا داكنة منحنية تحت عصف ريح قوية ، وبينها كنيسة صغيرة مبنية بروافد خشبية مائلمة تقريبا ويتوسط متسع نهر بعيد ، ومروج اعتمها الطقس السيئ وسما غائمة هائلة . سحب ثقيلة مشبعة بالرطوبة الباردة تخيم على الارض . وشغف المطر المائلة تغطي الرياح .

لم ينقل احد من الرسامين قبل ليفيثان بهذه القوة العزيمية الأمام التي لا تسير للطقس الروسى الماطر . وهو من الهدوء والجلال ما يجعله محسوسا كالعظمة .

وكانت الرحلة الثانية الى الفولغا اكثر توفيقا من الأولى . لم يسافر ليفيثان وحده بل مع الرسامة كوفشينيكوفا . كان الكثيرون ، ومنهم ليفيثان نفسه ، يعتبرون ان تشيخوف قد وصف هذه المرأة الساخجة العاشقة لليفيثان في قصته «الغافزة» . وقد تذكر ليفيثان من تشيخوف تكديرا شديدا على هذه القصة .

وانقلعت الصداقة بينهما . وسارت المصالحة في طريق وعبر معذب . ولم يستطع ليفيتان حتى آخر حياته ان يغفر لتشيوخوف هذه القصة .

سافر ليفيتان مع كوفشينيكوفا الى ريازان ، ومن هناك استقلا باخرة نازلين في نهر اوكا الى الاسفل حتى قصبة تشولكوفو . وقرر الاقامة في القصبة .

كانت الشمس في الحقل تاقظ وراء منحدر صليصالي . وكان الصبيان يطاردون الحمام المحمر من لون الشفق . وفي الشاطئ المرجي اوقدت نيران ، وفي المستنقعات يوقوق مالك العزير شاكيا .

في تشولكوفو اجتمع كل ما اشتهر به اوكا - كل سحر هذا النهر «الفياض ذي اشجار البيلوط المورقة ، الجاري في منسبط رمال موروم بجلال وبهاء وانسياب وسط شواطئ مهيبه» .

لا شيء يعبر عن سحر اوكا الكسول من هذه الابيات ليزيكوف .

على المرسى في تشولكوفو اقبل على ليفيتان عجوز قصير ذو عين سبالة دلمعة . وجذب بعركة بطيئة رذن ستره ليفيتان من حريم التيسور ، ودعك قماشها طويلا باصابعه الخشنة . سال ليفيتان :

— ماذا بك ، يا جده ؟

— القماش - قال العجوز وتأوه - يطيب للمرأة ان يتبلاه . يهس مثل المرأة . ومن هذه ، المغفرة لله ، هل هي زوجتك ؟ واشبار العجوز الى كوفشينيكوفا . وظهر الخبث في عينيه . اجاب ليفيتان : - زوجتي .

— انها - قال العجوز ذلك بخبث ، وانصرف . قال - سيعرف اصلك وفصلك ، وما تجولك في الارض .

ولم ينسب اللقاء عن شيء حميد . ففي صباح اليوم التالي عندما جلس ليفيتان وكوفشينيكوفا على منحدر البتل ، وفتحوا صناديقهم الاصباع ، بدأت بليلة في القرية . اخذت النساء يتنقلن من بيت الى بيت ، وتجمع الرجال على منحدر التل يبدء متجهين محلولي

الاجزمة . وقد علق القش في شعورهم ، وجلسوا على مبهدة ، ينظرون الى الرسامين يصمت . وصار الصبيان ينثرون وراء ظهرهما يدفع بعضهم بعضا ويشتمون .

وتقدمت عجوز بلا اسنان من جانب ، ونظرت الى ليفيتان طويلا ، ودعت فجأة :

— يا يسوع المسيح ، ماذا انت فاعل ، يا وفتح ؟

واخذ الرجال يضمجون . وشحب ليفيتان وهو جالس ، ولكنه ضبط نفسه ، وقرر ان يرد بالمزاح فقال للمرأة :

— لا تفظري ، يا شيخه . وستنهرين .

— او ، او ، يا سليمط - صرخت المرأة ، ومخلت في ذيل ثوبها واتجهت الى الرجال . وكان بينهم كاهن ضئيل الجسم داعم العينين لا احد يعرف من اين جاء الى تشولكوفو ، واقام في كنيسة القرية . لقد اهتز هذا الكاهن معتمدا على عصاه الطويلة ، وحثف بصوت مكتوم :

— اناس فاسدون ! ان ما يعلنانه غير مفهوم . يخططان هروج الله . لا مفر من وقوع حريق ، يا رجال ، لا مفر من وقوع مصيبة ! وصرخ العجوز ذو العين الواحدة :

— عودا من حيث اتيتما ، تقاليدنا لا تسمح يرسم اللوحات مع النساء . انصرفا !

واضطر الرسامان الى جمع الاصباع والانصراف .

وفي نفس اليوم رحل ليفيتان وكوفشينيكوفا من القرية . وعندما كانا متجهين نحو المرسى كان يهدر عند الكنيسة حشد فالت ، وكانت تسمع صيحات الكاهن الزاعقة :

— اناس فاسدون . كفار . المرأة تسير حاسرة الراس .

وكانت كوفشينيكوفا لا تضع على راسها قبعة ولا مندبلا .

نزل ليفيتان مع مجرى نهر اوكا الى نينجي ، وهناك انتقل الى باخرة اقلته الى ريبنسك . كان ليفيتان طيلة الايام يجلس مع كوفشينيكوفا على ظهر الباخرة ، وينظر الى الشواطئ باحتيا عسبن اماكن للدراسات .

ولكن لم تكن هناك اماكن جيدة ، وكان ليفيتان يشجعهم اكثر فأكثر ويشكو من التعب . كانت الشواطئ تمر ببطء وبلا تنوع ، ولا تسر العين لا بالقرى الجميلة المنظر ، ولا بالمنعطفات الساحية المنسابة .

واخيرا شاهد ليفيتان في بليس ، من على سطح الباخرة ، كنيسة قديمة من جذوع الصنوبر ، كانت تبدو سرداء على خلفية السماء الخضراء ، وكانت النجمة الاولى تتوقد فوقها متوامضة متألعة .

وفي سكون المساء وسط الاصوات الرخيمة للنساء وهن يبعن الحليب على العرسي شعر ليفيتان نحو هذه الكنيسة بطمأنينة كبيرة حتى انه قرر في الحال البقاء في بليس . ومنذ ذلك الوقت بدأت مهلة مشرقة في حياته .

كانت البلدة الصغيرة مسكونة قليلة السكان . وكان لا يصغر السكون غير قرع الجرس وثقا القطيع ، وفي الليالي نقر عصوات الحراس ، وفي منعطفات الشوارع الصغيرة والمنخفضات كان يزدهر الارقطيون ويشو نبات ريجل الاوز ، وفي البيوت يجفف زهر اليزفون على افاريز التوافذ وراء ستائر الموسلين .

كانت النهايات مشبعة مستقرة جافة ، والصيف الروسي كلما اقترب من الخريف يضحي اكثر ازديانا بالزهور الناضجة . وحتى في آيب تتورد اوراق حدائق التفاح وتثاقل الحقول بشيب الخريف ، وفي الاسميات تخيم على الفولغا غيوم مظنة بتورد حار .

زالت الكآبة . وكان من المخجل حتى ان تخطل له على بال . وكان كل يوم يأتي بمفاجآت مؤثرة . ثارة تضع امرأة عجوز ضعيفة البصر حسبت ليفيتان فقيرا قطعة تقود محكوكة من فئة خمسة كوبيكات على صندوق الاصباغ ، وثارة يأتي اطفال يدفع بعضهم ظهر الآخر يطبلون ان يرسموا ، ثم ينفجرون ضاحكين ويترقبون متراكضين ، وثارة تأتي خلصة جارة شابة من انصار المذهب القديم ، وتبدأ بالشكوى بصوت زخيم عن قسمتها الثقيلة . وقد اطلق ليفيتان على هذه المرأة اسم «كاترينا» من شخصيات مسرحية «عاصفة رعدية» لاولستوفسكي . وقد قرر مع

كوفشينيتسكوفا ان يساعد كاترينا على الخروج من بليس هربا من العائلة المقرفة . وقد فوثن الهروب في دغل وراء البلدة . كانت كوفشينيتسكوفا تتهاشم مع كاترينا بينما وقد ليفيتان عند حافة الدغل وراح يندثر العرائن عند الغطر بصغير خافت ، ونجحت كاترينا في الهروب .

كان ليفيتان حتى سفره الى بليس لا يهوى الا المنظر الطبيعي الروسي . ولكن لم يكن مفهوما له الشعب الذي يقطن البلاد الكبيرة . فمن كان ليفيتان يعرف ؟ حارس المدرسة فقط «الروح الغيبية» ، ندال العائات ، خدام الغرف المؤنثة الوقاء ، رجال تشولكوفو المتوحشين . وكان غالبا ما يرى الغيب والقسارة والخنوع الاخرق ، والاحتقار له ، كيهودي .

وحق اقامته في بليس لم يكن يؤمن بخنان الشعب ، برجاسة غقله ، بقدرته على ان يفهم الكثير . وبعد بليس احس ليفيتان بقربه لا من المنظر الطبيعي لروسيا وحده ، بل ومن شعبيها الموهوب التعيس الذي يبدو وكأنه اخلد الى السكينة اما انتظارا لمحنة جديدة او لانطلاقة عظيمة .

في هذه المرحلة الثانية الى الفولغا رسم ليفيتان لوحات كثيرة . وقد قال تشيخوف له عن هذه الاشياء : «في لوحاتك ظهرت ابتسامة بالفعل» .

ظهر الضوء والثاق لاول مرة عند ليفيتسان في اعماله «الفولغاوية» - في «بليس الذهبية» و«ريح طرية» و«نئين الاجراس في المساء» .

ان كل واحد منا تقريبا قد بقيت في ذاكرته منذ الطفولة فرجات الغابة المفروشة باوراق الشجر ، ومعاني الوطن المورقة الزينة المتألقة تحت الشمس الباهتة الحارة في الزرقة الخافتة ، في سكون المياه الوادعة ، في صيحات الطيور المهاجرة .

وتنبعث هذه الذكريات في سن النضج بقوة مذهلة لاي حجة واعية ، ولو كانت منظرا طبيعيا عابرا هربا من وراء نافذة فسي

عربة قطار ، فتثير فينا احساسا غير مفهوم لنا انفسنا بالانغماس والسعادة والرغبة في ترك كل شيء - المدن والمشاكل ودائرة الناس المعتادة ، والرحيل الى ذلك المكان البعيد ، على ضفاف بحيرات مجهولة ، طرق الغابة ، حيث يسمع كل صوت يوضح عن بعد كما لو كان في خزي الجبال ، سواء ، اكان صافرة قاطرة او صغير طائر يتنقل في اجسام الغبراء .
ومثل هذا الاحساس بالاماكن الجميلة التي رايناها منذ زمان بعيد يتخلف من لوحات ليفيتان «الفولغاوية» و«الخريفية» .

كانت حياة ليفيتان فقيرة في الاحداث ، فقد قام برحلات قليلة . واحب روسيا الوسطى فقط . وكان يعتبر الرحلة الى اماكن اخرى مضیعة للوقت سدى . وهذا ما بسدا له السفر الى الخارج ايضا .

لقد سافر الى فنلندة وفرنسا وسويسرا وايطاليا .
اثارت الضجر فيه احجار فنلندة الخرائيتية وماؤها النهرى الاسود ، وسماؤها المتلجلة وبحرها الكثيب . وقد كتب الى تشيخوف من فنلندة : «مرة اخرى اكتب الى اقصى حد . هنا لا توجد طبيعة» .

وفي سويسرا يهرته جبال الالب ، ولكن منظر هذه الجبال لا تختلف عند ليفيتان عن مناظر اللوحات المصغرة الملطخة بالاصباغ الصارخة .

وفي ايطاليا لم يعجب الا بفينيسيا حيث الهوا مملو ، بدرجات اللون الفضية التي تولدها الاهوار الكامدة اللعنان .

وفي باريس شاهد ليفيتان صور موثية ، ولكنها لم تعلق بذاكرته . وقبيل موته فقط قيم رسم الانطباعيين وفهم انه جزئيا كان المبشر الروسى بهم ، ولاول مرة ذكر اسماءهم بتقدير .

قضى ليفيتان في السنوات الاخيرة من حياته اوقاتا طويلة بالقرب من فيشنى-فولوتشوك على ضفاف بحيرة اودومى . فهنا ،

وفي عائلة اصحاب الاطيان بانافيدين وقع ليفيتان مرة اخرى فى شراكة العلاقات الانسانية ، واطلق النار على نفسه ، ولكنه انقذ . وكلما اقترب ليفيتان من الشيوخة كان فكره يتوقف عند الخريف .

حقا ان ليفيتان رسم بعض الاعمال الربيعية الممتازة ، ولكنها كانت دائما تقريبا ربيعا يشبه الخريف .

في لوحة «الما، الواسخ» دخل غمره الفيضان غار كما هو في اواخر الخريف ، وحتى لسم يفظ بالسديم المضموضر للاوراق الاولى . وفي لوحة «الربيع المبكر» نهر اسود عميق يقف ميتا وسط المنخفضات التي ما تزال مغطاة بالثلج الهش . وفي لوحة «آذار» فقط انعكس السطوع الربيعى الحقيقى للسماء فوق اكوام الثلج الذاتية ، وضوء الشمس الاصفر واللحمان الزجاجى لسماء الذوبان المتقطر من مقدمة بيت خشبى .

ان اعذب الاشعار والكتب واللوحات واكثرها مساسا للقلوب هى تلك التي كتبها او رسمها الشعراء والكتاب والرسامون الروس عن الخريف .

كان ليفيتان مثل بوشكين وتيوشيف وكثيرين آخرين ينتظر الخريف كاعز واخطف فصل من السنة .

كان الخريف يعرى الغابات والمجول والطبيعة كلها من الالوان الكثيفة ، ويمسح الخضرة بالامطار . وتصيح الادغال جرداء . وتستبدل الوان الصيف الداكنة بالذهب الباهت ، والارحوان والفضة . ولا يتغير لون الارض وحده بل والهوا ذاته . فيكون اصفى وابرد ، وتكون الابعاد اعق بكثير مما هى فى الصيف .

وهكذا يتحول الترف الذى للالوان ورونق اللغة فى سنن التضج عند كتاب ورسمين كبار الى دقة واصالة معدن .

والخريف فى لوحات ليفيتان متنوع جدا . ومن المستحيل تعداد جميع ايام الخريف التي رسمها على القماشمة . وقد خلف ليفيتان حوالى مائة لوحة «خريفية» ما عدا الدراسات .

وقد صوّرت فيها اشياء معروفة منذ الطفولة : اكوام الدريس المسودة من الرطوبة ، وانهار صغيرة تلف الاوراق الساقتة فى

دوامات بطينة ، وأشجار بتولا وحيدة ذهبية لم تعرها الريح بعد ، وساء تشبيه جليدا رقيقا ، وامطار كثيفة فوق اشجار مقطوعة . ولكن في كل هذه المناظر الطبيعية ومهما صورت ينعكس أفضل ما ينعكس ، حزن الايام المتصرمة ، واوراق الشجر المتناثرة ، والاعشاب المتعفنة ، ولطيف النجيل الخافت قبيل موجات البرد وشمس ما قبل الشتاء المدفئة للارض بشكل لا يكاد يلحظ .

رويدا رويدا ، ومن عام الى عام كان مرض قلب شديد يتطور لدى ليفيتان ، ولكن لا هو ، ولا القريبون منه كانوا يعرفون به الى ان ظهر بأول نوبة قوية .

ولم يتعالج ليفيتان . فقد كان يخاف الذهاب الى الاطباء ، ويخاف الاستماع الى الحكم بالموت . وبالطبع كان الاطباء سينعرونه من التردد على الطبيعة ، بينما كان ذلك بالنسبة له صنو الموت . وكان ليفيتان يتشوق اكثر مما في سنوات الشباب . وكان يكثر باطراد من الخروج الى الغابات - وكان يعيش في الصيف قبيل موته بالقرب من زفينيفورود - وقد وجدوه هناك ياكيا خائر الاعصاب . فقد عرف انه لا شيء - لا الاطباء ولا الحياة الهادئة ولا الطبيعة التي يحبها بشكل عارم - يقادر على ان تبعه النهاية التي دنّت .

في شتاء ١٨٩٩ ارسل الاطباء ليفيتان الى يالنا . في ذلك الوقت كان تشميخوف يعيش في يالنا . والتقى الصديقان القديمان وقد تقدمت بهما السن واغترب احدهما عن الآخر . كان ليفيتان يسير متكتبا على عصاه بقل ، لاصت الانفاس ، يحدّث الجميع عن دنو الموت . وكان يخافه ولا يغفى ذلك . وكان قلبه يوجعه بلا انقطاع تقريبا .

كان تشميخوف يمن الى موسكو ، الى الشمال ، ورغم ان البحر على حد كلماته ، كان "كبيرا" الا انه كان يضيئ العالم . وما خلا البحر ويالنا الشتائية الهادئة بدا وكأنما لم يبق شيء في الحياة . وهناك في مكان بعيد جدا وراء خاركوف ، وراء كورسك واوريل كان الثلج يرقد ، واضواء القرى الفقيرة تومض من العتمة في

العاصفة الثلجية البيضاء . وبدت هذه العاصفة الثلجية حبيبة الى القلب ، اقرب بكثير من اشجار السرو الجنوبية والهواء البحري الحلو . وكان هذا الهواء يصيب الراس بالصداع غالبا ، وبدأ كل شيء حبيبا : الغابة والجدول - ومختلف القرى الصغيرة من امثال بيغوركا وفيرتوشينكا ، وحزم الدريس في الحقول الغالية في المساء ، مضامة بضوء القمر الباهت ، وكأنما قد نسيها الانسان الى الابد .

طلب ليفيتان العليل من تشميخوف قطعة من الكارتون ، وخلال نصف ساعة خطط عليها بالاصباغ الزيتية حقلًا في المساء فيه حزم الدريس . وقد وضع تشميخوف هذه الدراسة على الموقد قرب متضدة الكتابة ، وغالبا ما كان ينظر اليها اثناء العمل .

كان الشتاء في يالنا جافا مشمسًا ، ومن البحر كانت تهب رياح فيها دفء . وتذكر ليفيتان رحلته الاولى الى القرم ، فرغب في الذهاب الى الجبال . فقد كانت تنازعه ذكرى تلك الرحلة ، حين شاعده من قمة جبل آيبتري السماء العائمة المقفرة تحت قدميه ، وكانت الشمس تتدلى فوق رأسه ، وفي هذه البقعة بدت اقرب الى الارض ، وضوؤها الاصفر كان يلقي ظلالا واضحة المعالم . وكانت السماء الغائمة داخنة في الهواى في الاسفل ، وتزحف ببطء نحو قدمي ليفيتان مغلفة الغابات الصنوبرية .

كانت السماء تتحرك الى الاسفل ، وقد حير ذلك ليفيتان كما حيره السكون الجبلي الذي لا مثيل له قط . ومن حين لآخر كانت تمره صهسمة اتيال كسر الحجارة لا غير . وكانت قطعة من الصخر تتدحرج على المنحدر ، ويتدحرج معها عشب جاف شائك . كان ليفيتان يود الصعود الى الجبال ، وطلب ان يؤخذ الى آيبتري ، الا ان طلبه رفض ، فان الهواء الجبلي الخفيف الكثافة كان من الممكن ان يودى بحياته .

ولم تسعفه يالنا ، فعاد ليفيتان الى موسكو ، وكان لا يكاد يغادر بيته في زقاق تريوخفيتيتيلسكي .

وفي الثاني والعشرين من تموز عام ١٩٠٠ وافته المنية . وكانت الفسوقات تحل في ساعات متاخرة ، حين تظهر النجمة الاولى فوق

موسكو على علو شامق ، واوراق الاشجار متقلبة بخيار اصفر ، وفي انعكاسات الشمس الآذلة .

كان الصيف متأخرا جدا . في تموز كان الزنبق يكمل تفتحيه . وكانت شجيراتُه المنقلبة تملأ الحديقة الصغيرة قرب بيته . وكانت رائحة اوراق الشجر والزنبق والاصباغ الزيتية تطوف في المرسوم الذي كان يحتضر فيه ليفيتان . وقد صاحبت هذه الرائحة كامل حياة الرسام الذي نقل الى القماش حزن الطبيعة الروسية ، تلك الطبيعة التي كانت تنتظر ، مثل الانسان ايضا ، اياما اخرى سارة . وقد حلت تلك الايام بعد موت ليفيتان ، وقد استطاع تلامذته ان يروا ما لم يره معلمهم - بلادا جديدة اضحى منظرها الطبيعي مختلفا ، لان الانسان اضحى مختلفا ، واستطاعوا ان يروا الق

الاولان الزاهية التي لم يالفها ليفيتان .

لم ير ليفيتان ذلك لان المنظر الطبيعي سار فقط حين يكون الانسان حرا وقرحا .

لقد اراد ليفيتان ان يضحك ، ولكنه لم يستطع ان ينتقل الى لوحاته حتى ابتسامة باعثة .

كان من النزاهة الشديدة بحيث ما كان في وسعه ان يتفانى عن عذابات الشعب . فصار المتغنى بالبلاد الشاسعة البائسة ، المتغنى بطبيعتها ، وكان ينظر الى هذه الطبيعة يعبرون الشعب المعذب - في ذلك تكمن قوة فنه ، وفي ذلك يكمن جزء من تفسير جاذبيته .

المنظر الطبيعي لروسيا الريفية





كل امرئ يحب الطبيعة على طريقته الخاصة و«قدر مكانه» .
وحب الطبيعة ليس تأمليا وفارغا من النشاط . وهو في كل لحظة يمكن ان يتحول من حالة التأمل الى حق ومقاومة . وكثيرون يعرفون ذلك الحق الذي يجمد القلب والذي يحسه المرء لدى رؤية الطبيعة تتخرب بدون داع . فان الزعيق الناجم عن سقوط اشجار معمرة قطعت من الجذور يصيب الانسان بالمرجس انسى تقريبا . ذلك لانهما تعرف ان قطع الاشجار في بعض الاحيان لا تفرضه ضرورة حياتية ، بل التقصير والجهالة ، والاسوأ من ذلك ، موقف الانانية النفعية من الارض .

وهيئات تحرير صحفنا تتلقى مئات الرسائل من اناس بسطاء من جميع انحاء البلاد حول الموقف غير المتبصر ، والاجرامى احيانا من الطبيعة ، والناس يزفرون الاعامت من ذلك ، ويطلبون المعونة . وحتى الآن ليس لدينا الادراك الكامل للحقيقة الاولى وهي ان الحفاظ على الطبيعة ، الحفاظ على المنظر الطبيعي هو واجب مهم على نطاق الدولة ، واجب تربية الروح الوطنية بمفهومها الصافي الاصيل .

وسعينا مدين ، ضمن اسباب اخرى ، الى الطبيعة بصفاته الخلقية وبموصيته وقوته الادبعية . فان قوة تأثيرها الجمالى من الشدة ، بحيث لولا وجودها لما كان لنسا يوشكين بمثل تلك الالامية التي كان عليها ، وليس يوشكين وحده ، بل ليرمتوف ، وتشايفسكى ، وتشيفنوف ، وغوركي ، وتورغنيف ، وليف تولستوى ، وبريشفين ، واخيرا ، لما كانت ثريات رسامى المناظر الطبيعية الرائعين : سافراسوف ، ليفيتان ، بوريسوف-موساتوف ، نستروف ، كرينشى ، كريموف وكثيرين آخرين .

من الصعب التصديق بأنه الى امد غير بعيد فقط كان بعض النقاد يعلنون ان المنظر الطبيعي غير ضرورى ، بل يقولون عن الرسامين والكتاب من مصورى الطبيعة انهم «يشفقون في المنظر الطبيعي عن الواقع» وبذلك يكشفون عن انفسهم بما لا مجال للشك على انهم اعداء مجتمعنا .



ولم تنجح بالطبع ، هذه المحاولة الخبيثة للظن في فننا . ولكن ما تزال حتى الآن بعض المفاهيم والمصطلحات النهلستية التي تنطوي على خطر تجريده الفن من الحياة .

ومن بين هذه المصطلحات «الاعجاب» . وهو يطبق كثيرا جيدا وبشاعة على رسامي وكتاب المناظر الطبيعية . ويرى في الأذن حكم انهام ولحن تشييع . وكان مغزى فحوى هذا المصطلح في خلاصته يتضمن ، في الظاهر ، ان الشخص اياح لنفسه ان يعجب بها «لا ينبغي» ان يعجب به ، حسب رأى الناقد ، ومثال ذلك المنظر الطبيعي .

من المفهوم ان الاعجاب بالطبيعة هو نتيجة جهلها ، وحب الطبيعة الحبيبة هو من اصدق امارات حب الانسان لبلاده ، امارات الوطنية . ففي اى الاذهان الكارمة للانسان والكارمة للطبيعة يمكن ان تتولد الرغبة في ان تلتصق هذه الكلمة برسامينا المتمازين كوصمة ؟

وما القصد من التذكير بذلك الا لكيلا تتكرر مثل هذه الحالات ابدا .

... في كل بلدة نائية في بلادنا ، بل وفي غيرها من القرى المنسورة يمكن ان تلتقى برسامين جيدين من الذين علموا انفسهم بانفسهم . ولا احد يعرف هؤلاء الرسامين ، ولم يكتب عنهم قط . وابناء البلدة يعملون هؤلاء الرسامين باحترام رغم انفسهم يعتبرونهم اصحاب اطوار غريبة . وذلك ، على ما يبدو ، لان الرسمى البسيط يحب الرسم اكثر من جميع انواع الفنون الاخرى على ما اظن ، ولا سيما حين يكشف له هذا الرسم فنتة الاماكن الباهولة المعروفة جيدا . وفي مثل هذه الاحوال يقول ابنا بلدة الرسام باعتزاز : «ذلك هو اماكنا ! بينما كنا نظن انه لا يوجد لدينا اى مكان متمتع تقريبا ، لا شىء غير الحقول والوهاد ، والناهار» .

من المؤسف بالطبع انه لا يوجد لنا حتى الآن اناس غيرون يهتمون بمثل هؤلاء الرسامين العصامين ، ويكتشفونهم . وينتقون افضل اعمالهم ، ويعرضونها للجمهور ، ولو فعلوا لاكتشفوا تروات

من الرسم لا احد يعرفها خلال قرون ، خطوطها الاصل ، تروات شعبية حقا في مباشرتها ، ولوحات رغم انها غير حاذقة في عين المقيمين المدققين ، الا انها مملوءة بالسحر البدائي .

وكم من مرة حدث لي ايضا ان اجد في الاماكن النائية ، في الاكواخ القديمة مثل هذه اللوحات غير مؤطرة وبسط الصبور الفوتوغرافية الباهتة والزهور الورقية الخضافة . وفي بعض الاحيان كان لا يمكن مسها دون ان تدع الرصاصير الصهباء تترافض وراها بعدو سريع في جميع الجهات .

وعندما تسال امرأة عن صاحب هذه اللوحات تسميها تقول في الجواب دائما تقريبا ان هذا من ليو ابنها ، فقد كان هاويا كبيرا في هذا الامر ، ولو كان ، بالطبع ، قد درس لطبع رساما فتنا .

... وتترقب قوة التأثير المتنوعة للمنظر الطبيعي على درجة ما تحمل من مسرة لحواسنا ، وعلى دوجة توليدنها الصادق القوي وحيانا المحلى .

اننا لن نفضل احسن الجمالات الرائعة للمناطق الاستوائية والغرب على اماكنا النائية المتواضعة . فقد ولدنا وعشنا «تحت القماشة الرمادية البسيطة لهذه السماوات الشسائية الهادئة» ، وقد اندمج جمالها بحياتنا كلها ، وكانت شهودا عليها ، ولهذا فحن وحدنا نستطيع ان نتحسس هذا الجمال ونفهمه بكامل القوة ، والاستثناء نادر .

وانثناء الرحلات غالبا ما نعجب بتلقى طبيعة بلاد اخرى ، ولكنها لن تغنى ابدا على الطبيعة الروسية . بل بالعكس كلما كان الشىء الغريب اسطح كان ما يضمننا اقرب اليها . لا شىء ، لا الوهج الليلقي لبحر ايبه ولا العرس المتورد ولا شجيرات الدفلى الحمراء ، ليلامى ، ولا هوا صقيلية الازرق الاسطوري ، ولا الغمامة الذهبية الباهتة فوق باريس الخالدة يستطيع ليس فقط ان يظفي على ذكرانا لوطننا ، بل بالعكس ، ان يدفع بها الى الحدة المرضية تقريبا .

وقد جربت ذلك بنفسى . عندما كنت في حدائق فرساي العسبية قبيل الخريف ، بأوراق أشجارها السوداء كطبقة مذهبة قديمة ، وبترتها الهندسى تذكرت - ولا أدري لماذا مطلقا - بلدة سباس-كلبيكي الضئيلة ، وتوجع قلبى .

في هذه البلدة جُنع ، وكأننا عن قصد ، كل ما تطيب به مثل هذه البلدات عندنا : البيوت الصغيرة بعلياتها التي أبيتها الحارة ، والزجاج الملون في واجهات البيت الصغيرة وأشجار الدردار المعمرة ، والجسر الخشبي المرن فوق نهر صاف ، والصياح المعدني للوز المذعور ، والسدة عند الجسر بأشجار الصفصاف الشائخة المنخوبة ، والعشب المغير على المنحدرات ، والصبيان بأعداد صيد السمك وزيفان الزرع اللاغطة ، والتجارون يمشيهم الملفوفة بقطعة جنفاص ، والشتيات الحاملات بجلال على أعود التوازن جرادل الماء . وصفارة القطار الشاكية على خط فرعى ضيق وهزيم الرعد الثاني فوق مناطق غابات الصنوبر ، والذي النتيجة للسحب الرعدية .

وفي ساحة السوق الريفية يغنى المذيع « نهضت السحب فوق المدينة ، والهواء مضمخ برائحة عاصفة زعدية » . ولا يصغى إلى المذيع إلا الخيول الصغيرة الشماء الاعراف عند مرايتها متفيرة السعنات . فإن غيرها تعنى من هذه الاغنية . ومن الصعب ، بالطبع ، تخمين ما تحلم به الخيول . ربما بالرسم المعطار وربما بالتصوفات الباردة الزلق في عليقة من الجنفاص البنسى الخشن . ومن وراء النهر ، قه ، وكان ذلك مناكدة ، رائحة كثيفة من الدريس المحصود لتوه . وتطير الديكة الى العربات برقاعة ، وتصيح في غير اوقاتها مصطلفة باجنحتها مستديرة المطر .

وانا لا أخشى الاعتراف بأن شاعرية اليوم الصيفى الناعس في مثل هذه البلدة اقرب الى قلبى من الرحابة الهيبة لحدائق فرساي . لقد خطرت في ذاكرتنا ألف مرة كلمات غريبودوف الغالدة في وقتها عن ان «دخان الوطن حلو لنا وعريض» - دخان

القرى في سكوت اليوم الشتائى الرقيق او دخان النيران الذى يمتد منخفضا فوق البحيرات العرجية .

الجميع يعرفون لوحة سستروف «رؤيا الصبى فورفوليم» . ان هذا الراعى الريفى الصغير ذا العينين الزرقاوين العميقتى النقاء - الاشقر الشعر ، النحل ، في لقاءى السافين على حدائين من اللب - يبدو للكثيرين تشخيصا لروسيا القديمة - لجمالها الهادئ الباطنى ، وسماواتها غير الساطعة ، وشمسها غيب الحارة ، والى آلامها التى لا تسير ، وحولها وغاباتها الهادئة ، اساطيرها وحكاياتها .

وهذه اللوحة ، كمصباح بلوزى اوقده الرسام في تمجيده بلاده روسيا .

واروع ما في الصورة هو المنظر الطبيعى . في الهواء الصافى كما البيع تشاهد كل ورقة ، وكل تويج متواضع لزهرة جمل ، وكل عشب ، وشجيرة بتولا عذراء . وكل ذلك يبدو نفسيا . وانه كذلك . ان هذا المنظر للحشاش والانهار الزرقاء المياه والتلال والغابات الداكنة ، وكأننا نسمع الى رنين خافت مقبل من بعيد ، يفتح فينا انفسنا مثل هذه الابعاد من حب ارض وطننا ، حسنى نيكلف جهدا كبيرا حتى لاهدا الناس ليحبس دموعه الارادية .

ان المنظر الطبيعى لنستروف يمس قلب كل من له قلب . وفيه ينعكس الجوهر الرائع للمخلق الروسى . وفيه ايضا يوشكين («الغابات الرافقة بالارواح والذهب» ، ويسمينين («الدخان العليلي يهز القرى بالريح ، ولكن لا ريج بل رنيننا خافتا فقط») ، وبلوك («الغايك عندي عاتية مثل دموع الحب الاول») ، والكسى توستوى («أبارك ، ايها الغاية») ، وبوتين («معناى ، يسا مغتيناى ، ايها القديم الناش») ، وليسكوف وبريشفين وليونوف وزابولوتسكى - جميع من اغنى شعر بلادنا .

وكل ما قيل عن شاعرية المنظر الطبيعى لبلداتنا الاقليمية له علاقة مباشرة بالرسم . ويكفى ان تخرج وراء طرف اية بلدة من هذه حتى تجد نفسك محاطا بهذا المنظر الطبيعى . ففي كل مكان على اى

جانب لاي طريق ريفي تنتظر الفنان الحقيقي ثروات كاملة في اى وقت من اوقات السنة .

لنبدأ من الربيع ، من الطلح قصور السنسة ، مثل بوارض الاوراق الاولى .

في مستهل الربيع توجد فترة قصيرة تسمي فيها مياه الربيع ، ويتفتح الصفصاف الابيض .

وتزدهر اشجار صفصاف بيضاء وحيدة فوق الماء ، الداكن الهادئ . وهي تنعكس على الماء ، وعليها يتناثر زغب فضي ناعم الملمس دافئ شبيه بفراخ الطيور الصغيرة . وقد سمى بريشفين مثل هذه الطيور «طويرينات» .

ومن الصعب التخلص من الاحساس بان هذا الزغب كانتسات حية ، وهي ، زيادة على ذلك ، دافئة دفئا وكان فروها الناعم تسده اعنص كل دفء النهار الربيعي ، رغم ان النهار غائم ، والشمس لا تطلع الا من حين لآخر مثل بقعة بيضاء مغمولة على خيمة السماء الرمادية .

في مثل تلك الايام يستولى علينا نوع من العمول احيانا من بفار الربيع والدق ، الرطب والمكون . وحينذاك يمكن ان نقضى ساعات في الجلوس على الشاطئ عند شجرة صفصاف كهذه ، ونراقب اسراب الغرائيق تطير عاليا متنادية فوق روسيا آتية من الجنوب مساعدة الى الشمال .

وفي مثل تلك اللحظات تترامى امام بصرنا الداخلي بلادنا المترامية الاطراف كلها بلغزها الدائم ونداء ابداها الزرورقة . وكل لحظة من هذه اللحظات تضيف حبة اخرى الى حبتنا ، وتقوى الادراك باننا نبات هذه البلاد المدهشة . وان حياتنا خارجها وبدونها مستعجيلة وبلا معنى ولا شيء .

عندما تسكن في بيت خشبي او في كوخ حارس الغاية فانك لا تستطيع نسيان ان في هذا المكان ، بالقرب منك ، وراء عتبة البيت العالية ، وراء الازوقة الصغيرة ذات النصاص ، حيث توصون الفراخ ، تبدأ مملكة الرسم .

١٩ ويكفي ان تتخطى العتبة لترى في الحال شجرة دردار معمرة ودربا يتلوى بين اجحات الجوز نحو جدول عميق ، وامرأة في بلوذة حمراء تجعل الى القرية على خشبة التوازن بياضات خشنة مفسولة . واللوحات لطيفة في كونها تجعلك في اية لحظة تدخل في عالم طبيعتنا المألوف ، ولكنه الجديد دائما . لا يكلفك ذلك غير ان تعبر عتبة الاطار المذهب .

ان رسام المنظر الطبيعي الحقيقي يعرف دائما اين يمكن ان يجد اكثف الجماد ، واين تنمو اعظم اشجار الشوح في البلاد ، واية الوان تحتاج الربيع النهرية ، واية الوان للمطر في ساعات الفسق . ولو كتب عن كل ذلك لخرج كتاب جذاب لا نظير له في الادب .

ويعمل رسام المنظر الطبيعي تحت السماء المكشوفة في اى وقت من اوقات العام ، وفي كل طقس ، وحتى في تلك الايام اللعينة ، حين يتساقط ثلج رطب مع مطر فوق المستنقعات الذائبة ، وجداؤه الطويل مملوء بالماء ، والرياح العادة تخلع الاطار المشدودة عليه القماش من جميع الجهات . ذلك لانك في الايام الاخرى لا ترى جميع الوان اكفرار الجو وانعدام الراحة والسماء الثقيلة الارذوازية - جميع الوان الفترة التي يطلق عليها سوء الطقس الربيعي والرطوبة . وبمقابل ذلك فاية متعة في العودة الى كوخ حارس الغابة الضيق والدافئ مع ذلك حيث يفوح السقف برائحة الغنثب الرطب المغطى بالاشنة والزهاد العاد من الموقد الروسي ، والسماور الدقوب الصنعني يغنى ناعسا ، والاحاديث تدور وراء الشاي المصبوب في افداح قديمة معروسة الحواف حول اقتراب الربيع ، وكيف ان المناقيب قد جاءت ، حسب رواية الحكايات القدامى ، من وراء البحر ، واعتقت الربيع من الاسر .

اوليست سعادة حقا تلك الايام في كوخ العارص ، حين تتعزز فتنة حياة الغابة الجواله هذه بان يدرك المرء بان عمله المفضل قد انتهى بنجاح ، وبايداعه للوحات جديدة .

ان عمل رسام المنظر الطبيعي الاصيل ليس هو فقط عمل رسام ، بل وعمل وطني حقيقي ايضا . ولوحته قصيدة عن روسيا .

وهو مثل يسينين يستطيع ان يقول بأحقية تامة «وساعبد بكل كيان
الشاعر سدس الارض المسمى باقتضاب روسيا» .

ان رسامينا الرائعين يجدون سدس الارض هذا . فلهم ،
كما كان الناس يحبرن ان يقولوا في الماضي «التكريم والمجد» جزاء
وفاقا على انهم يظهرون لنا سحر ارضنا الذي لا يسير له غور -
حتى البانونج الخجول المجروف بالمطر على الطريق الريفى ، وحتى
تساقط الاوراق في الغابات ، وحتى السماء الشاحبة الناطرة في
اعماق المياه الصافية .

نيكو
بيروسها نيشقيل





في تاريخ قديم جدا ، في عام ١٩٢٤ ، وأنا في تفليس كتبت
أوتشيراكا * عن الرسام الجورجي نيكو بيروسانيشفيل (في جورجيا
يدعى نيكو بيروساني) . تم حدث في الحياة عدد كبير من مختلف
الاحداث واضمح الاوتشيراك ناقصا . ولم اعد الى ذلك الاوتشيراك
الا بعد اربعين عاما ، واكملته .

طوال هذه الاعوام - من عام ١٩٢٤ حتى ١٩٦٠ - شعرت
بالرغبة وخجل خفيف من اننى لم اكمل الوصف الخاطف لحياة
بيروساني ، وكانى تركت رفيقى في منتصف الطريق ، وسرت وأنا
في طريقى دون ان احفل به .
وانا انشر كلا الاوتشيركين - القديم والجديد - غير خائف من
التغرة الزمنية بينهما ، وهى ٣٦ عاما .

... في تفليس توفي الرسام العصامى المتشرد نيكو
بيروسانيشفيل . في حياته لم تقدم لوحاته ، واشترت لقاء قدح
من النبيذ . اما الآن فقد تكونت جماعة كاملة من خبراء الرسم الذين
يمشون ، ويشترون ، ويدرسون اعمال «فان دونغين» الجورجى
هذا .

... اليوم في القسما ما يزال نهر كورا كالعادة يدمدم بقووس
تحت الجسور ، والسماوات المنجمة تتورد بالكاد فوق كاخيتيا ،
وكان احدا اضاء بعدد نقاب حافة قدح بلورى اسود . والجر هادئ
جدا . وفي الاقنية الناعسة رجعنا ، بالقرى من ميتيخ تنخر الحجير
وتسحق محرك اذانها المخملية الدافئة .

وتقترب الساعة المذهلة في الايام الاعتيادية البسيطة ، حيث
يفقد كل شئ الوانه فجأة ولعدة لحظات : النساء والرجال الرمادية .
اما الحدائق في سديم اشجار اللوز الوردى فتصبح خيالية رمادية .

* فسلت استخدام اللفظة الروسية «اوتشيراك» (اوتشيراك) لعدم وجود
مرادف لها في اللغة العربية وهى تعنى احد اشكال رواية الحدث يجمع بين
الواقعية والتصميم .
وقد قال عنه غوركى انه يجمع بين والبحث والقصة مقتبس من
القاموس الموسوعى من قبل المترجم .

وفوق الارض المغطاة بطبقة غبار رقيقة جدا ، والفاقة الظل يطوف
صمت ما قبل الفجر بيضاء الى حد الرنين في الاذن . وهذا الصمت
يجعلك تسمع سريان الدم في جسدك المتمم من الارق .

في هذا الصمت افكر طويلا في الرسام الذى خلق القفقاس
الاشيب ، الاسود الباهت المتطامن - القفقاس بلا ظلال ، بلا شمس ،
في ضوء الفجر بيضاء . انه القفقاس الذى يمكن ان يتغلبه السكارى
والمشردون والمتسكعون في الفجر على الارصفة الرطبة . افكر في
الرسام ، في بيروساني القفص والموهوب .

ولكن اول شعاع يرتقى للشمس على وجهي وصيحات باعة
الالبان المبحوحين تطرد هذه التخييلات ، ويعود من جديد نهـار
تفليس ، كقصة حارة ، مغلفا في البساط الازرق من السماء الثقيلة
والغبار الاصفر .

واحيانا ، في الاماسى ، اعمن النظر في لوحات بيروساني على
ضوء مصباح كبروسين معلق على علو . انها تنير الرغبة . الوان
قديمة ، رماد فجر ، ظهور مهشمة لرجال سوداء ، رسم يداني
واحيانا رخيص ، وجوه متفتحة لامراء ، عالم خيالى لاصحاب المعاليم
والجمالين الملغزين بالشمس والمساكين المتعبين ذوى العيون
الشبيهة بعيون الكلاب ، وايوايين ، واللحاحين في الزلانس ،
والممثلات البائسات من مسارح الضواحي ، عالم كان يقيمه على
قطع من المشمع (رسم بيروساني معظم اعماله على مشمع سوداء
ويشياء وعلى التلك) . وكذلك عالم كامل لوحوش مروعة تصفى
بخوف الى الليل وهدير الانهار الليلية .

ان بيروساني جورجى بسيط ومتسكك ، كان يبيت في سرداب
ناخالوفاك وافلابار ، ويرسم اعماله المذهلة لقاء الغداء في مطعم
شعبى ، وماوى ليلى ، لقاء زجاجة من النبيذ ، في سبيل الـايـموت
جوعا على ارضة شوارع تفليس المسفوعة بالحجارة .

ان انسانا لا يكاد يحسن توقيع اسمه تحت لوحاته كان يدخل
فيها بغفة وبساطة وبدون اثر لاي اجهاد اكتمال الخطوط ، والتركيـب
الدقيق الريان والاتسامات الدقيقة للمنمنمات الفارسية ، والتدبـم
الاسطورى الشبيه بشباب الكنائس الارمنية ، وكل سداجته الطفولية

والتلوين الغريب علينا ، نحن الاوربيين ، لنجل تفليس المفاجئ ،
والنهار المتعب المغير والقلم التلجية في الضباب الجاف .

كان يرسم رأسا وبشكل نهائي وببساطة ، ويلقى بعض
الاصباغ والخطوط تاركا بدلا من الصبغ الاسود قماشة المشمع
خالية من كل صبغ ، يرسم كما نتحدث ونشرب ، كما يبكي طفل ،
كما يفقه بائع متجول احمر البوز ، وكان جمهور المطاعم الرخيصة
ينتظر كيف كان يرسم لوحاته بسرعة مذهلة ، ويعبر عن فرحته
بصياحات مبهجة وبالتصفيق عندما كانت تزدهر على المشمع خلال
صور الاشخاص النصفية ومناظر الفققاس الطبيعية .

وقد شاهدهت صورته . رجس طويل هادئ ذو جبين متحد
وعينين طفوليتين ، وكان ينطوي على مرارة ، اسي صامت عن الحياة .
فقد وهبها احلامه . ولم يلق منها غير الاحساس اللاذع بالرغبة .
كان يرى في المطاعم الرخيصة ذات الرائحة الحامضة من البراميل
القديمة عتالين فقدوا اصواتهم من التعب واطفالا بكوا مهجورين
واسمالا لا يتقبلها العقل ، تغلى اجسادهم ، وموسيقين مرتجفي
الايدي ، ورقاب الفقراء المعروقة - كل الذين صقلوا التجارة في
السوق الارمنية ، ولم يتفوهوا بشكوى قط .

كان صامتا ، الا ان الضيق كان يطبق على خناقه باصابع
سميكة . وكان موضع حب الذين في المطاعم الشعبية حيث كان
اصحابها يطعمون الزبائن بالفاصوليا العفنة .

... « اكتشفوه » بعد عدة سنوات من وفاته فقط . فقد دخل
بعض الرسامين الشبان الى مطعم عند المحطة مصادفة ، ووجدوا
على الحائط القاتم مشمعات بيروسماني ، وانبهروا من قوة الرسم
غير الاعتيادية لهذا الفنان المنصور .

ومنذ ذلك الحين اصبح بيروسماني هذوهم ، جنونهم . صاروا
يبحثون عن مشمعات بيروسماني في السرايب والاطنية والدكاكين
الصغيرة في اطراف المدينة ويشترتوها ، وفي تفليس اخذوا لاول
مرة يتحدثون عن الرسام الشعبي الاعجوبة المنسى .

ودرسوه يدايا واجدين في كل مرة عمقا جديدا في اعماله ،
حقا وبساطة ، لمعانسا وحكمة في تركيبه . وقد لملم هؤلاء

المتحمسون لبيروسماني قصة حياته المحزنة من استقطاقات الحمايل
الصعاليك ومن المحادثات مع بائعي الخضروات وصياغي الاحذية .
وحين سئل اصحاب بيروسماني عن ايامه الاخيرة اجابوا
بتبهم :

- اين كنت من قبل ، يا صاحبي ؟ انت الآن تبحث عن كل
علامة من علامات نيكو ، ولكن لما كان ما يزال حيا لم تبحث عنه ،
فصرعه الجوع . ودفناه في بقعة ضائعة من المقبرة . ولا حاجة لك
الى ان تبحث عن القبر ، يا صاحبي ، فلن تجده .

وذلك نصيب جميع الموهوبين تقريبا : ان يموتوا مشغورين ،
لكي ينهضوا بعد سنوات وسنوات من موتهم فوق الحياة اللاعطة
الكدرية مثل نهر كورا بكل شفافية ايداعهم وسماحته العظيمة ،
ولينفذوا الى قلوب الناس بفرح بهيج .

... مرت على بيروسماني لحظات كان فيها يبتسم . عند ذاك
تزدهر اثواب الاطفال تحت السماء النيلية ، وكان الريح تمسوق في
الشوارع الشمسية آلاف اوراق الشجر الخريفية وبقع الضياء
الزرقاء من السماء ، عند ذاك يتفخ الموسيقيون الشعبيون بشكل
مضحك خدودهم الجرداء ، وهم يعزفون على مزمارهم المتوارثة ،
عند ذاك يكون العنب البارد في الصباح كامد اللون اسود ، وفي
القيظ الطباشيري يتلون باللون البرتقي وحجر القمر تفقاسه
ومدينته تفليس كالنار في الريح . وعند ذاك يصبح واضحا ان
لمعان تلوين كان يكن في وعي هذا الفنان .

... رسم بيروسماني الكثير من الصور ، والكثير من
المقاصف ، والكثير من الفلاحين والتبويرج والحمير والاطفال ،
والكثير من النساء السوداوات ذوات العيون المتفاذة ، والكثير من
الجبليين واهل البترة الصامتين . ولهذا فان مشمعاته تحتضن
جورجيا كلها ، كل تفليس الرائعة الصفراء مثل حبات الكهرمان ،
الوطن الثاني لكل الذين عاشوا فيها ، ولو وقتا قصيرا . ومن خلال
حزن مشمعات بيروسماني تزهر حياة ما وراء الفققاس الاخاذة -
عثة الامصار الاسطورية - الرتيبة كفسجج الانهار الحارة ،
والمزركشة مثل حلة كردية .

وحیوانات بیروسمانی جيدة ، وأنا اذكر ذلك الاحساس الغريب الذي شعرت به حين رايت «زرافة» لأول مرة . وكان المساء قد تقدم ، وكان السكون يرقد في البيت المرجح للصندي ، وفوق جبل داود الميت يميل قبر خائق مقيم . نظرت الى الشمعة ، فنفذت الى عيني نظرة وحشية ندية . واسعة الادراك لحیوان اصغر حال ، وقد احثي رقبته ببطء ، وبدا وكأنه كان ينتظر ان تصدر صيحة في الحجرات الفارغة المهيورة ، فيندفع بضربة واحدة من خوافه في الليل المزرق الداخن متشعرا من دعر غير مفهوم .

كانت حدائق فيرا ، واورتاشال المشهورة تقع في ضاحية تفليس . وكانت منتجعا صيفيا للترفيه والراحة . وقد حولت كل حديقة صغيرة تقريبا الى مقهى او مطعم . ونحو المساء ، عندما كان الحى يهبط كان اهالى تفليس يتوافدون الى هناك . ومن كان على حظ من الفنى كان يأتي في العربات ، والافقر مشيا على الاقدام . وكانت اسماء المقاهي تتميز بالانفحة وانعدام الذوق . وكان اغلى مقهى يدعى «الدورادو» . ثم جاءت «فانتازيا» و«سان سوسي» و«شانتلكرو» و«جنتلمان» .

وعلى مسافة غير بعيدة عن حدائق اورتاشال كان هناك ما يسمى بالشوارع «المرحبة» . والكثيرون من رواد المقاهي كانوا ياتون في البداية الى هذه الشوارع ، ويجلبون من هناك فتيات صاخبات .

ماذا كان ينتظر التفليسي في تلك الحدائق ؟ الطراوة . والدخان الشدي شواء لحم الضأن ، والغناء والرقص ولعبة اللوتو الخماسية والنساء الجميلات المغشوشات .

وكانت تجذب بشكل خاص الطراوة تحت افياء الدلب والتوت . وكان يصعب ان يمی المرء كيف كانت تظل هذه الطراوة موجودة في حين كانت تفليس واقعة بالقرب من منخفض حار ولى طوق من الجبال المتلطفية ، بل كان من الرهيب النظر الى المدينة من المرتفعات

المجاورة . لقد كان يبدو وكأن تفليس تدخن من شدة التوقد ، وما هي الا لحظات وتندلع نار عملاقة .

وربما مصدر هذه الطراوة النافورات او نفحة من الثلوج الجبلية التي كانت تتسرب الى الحدائق بحدو . وفي المدينة كان المرء لا يستطيع ان يتنفس الا قبيل الفجر ، حين تكون البيوت قد فطرت حرارتها قليلا خلال الليل . ولكن ما تكاد الشمس ترتفع من كاخيتيا حتى ينسكب الحر المرحق في الشوارع .

كانت من بين المغنيات اللواتي يغنين في حدائق فيرا امرأة واحدة مكسالة ضيقة الخصر عريضة الكتفين ، شعرها بلون البرنز ، ورجلتيها رقيقة وقوية ، وجسدها وردي . وكانت تسمى مارغريتا . وكان رواد المقهى الذي كانت تغني فيه في المساء يعتبرونها البائية متروسة ، ولكن صاحب الحديقة ، وهو مينغريلى سريع التفكير ، كلما سمع هذه الاحاديث اقام ضجة حقيقية . وكان يصرخ :

— يبدو ان اذعنتمكم قد انقلبت كلياً في رؤوسكم ! ألم تسمعوا

ببلاد تدعى فرنسا ؟

وكان احد الرواد غير العلوين يرت عبوسا :

— حسنا ، سمعنا !

— ألم تسمع بان في فرنسا ولاية تسمى ايلزا ؟ سمعت ؟ حسنا ، انها من تلك الولاية ، من ايلزا . فرنسية من الدرجة الثانية . اى ناس هؤلاء ! لا يعرفون اينسك الاشياء ! يعرفون كيف يتشاجرون ، وكيف لا يدعون باقى الفلوس ، يعرفون كيف يمسكون الفتيات في الشوارع ، وينشون في الورك . ولكن لا يعرفون على الاطلاق كيف يشغلون عقولهم .

وكانت مارغريتا نادرا ما توافق على تناول طعام العشاء مع الرواد ، ولكنها كانت تقبل بعدم اكثر من الهدايا الصغيرة منهم كئى تستحقه . . . ثم كانت توزع الهدايا على الصديقات . فقد كانت وحيدة تماما .

وعلى العموم كان من الصعب ان يفهم المرء ماذا كانت تظن في الجميع ، ولا سيما الرجال . وكان الكثيرون يودون لو يجعلونها عشيقته .









كانت قليلة الكلام ، ولكنها كانت تغنى بصوت غير اعتيادى ، وتناثري كما كان يقال .

وكان يقدر لسماحها فنانو الاوبرا والموسيقيون ، فقد كان غناء مارغريتا يخلق الاحساس كما لو انه مصحوب دائما بهمس شبيه بالصدى الضعيف .

وكان الممثلون يقولون ان ذلك ما يدعى بالخداع «الصوتى» ، مثلما يحدث ، مثلا ، «خداع البصر» . وفى واقع الامر لم يكن هناك اى صوت ثان .

كانوا يتحدثون ويتناقشون بهذا الشكل ، ولكن على الرغم من ذلك كان كل واحد يسمع ، حين تغنى مارغريتا ، نغمة مزدوجة لصوتها . وكان الصوت الرئيسى كأن ذهبيا ، والثانى فضيا .

وذات مرة حجز المغنون والموسيقيون مطعم «فارياغ» طوال المساء ، ودعوا اليه مارغريتا ، ونظموا لعشاق الغناء حفلة منلقة . وبعد الحفلة نهض قائد فرقة الموسيقى العجوز ، وقال ان

الصوت الانساني هو اعقد آلة موسيقية . وهو اغنى من البيانو والكمان ، ولهذا فان تواجد عدة طبقات فى الصوت فى آن واحد ممكن تماما وطبيعى .

وكانت مارغريتا تسمح وتشرب النبيذ مطرقة الراس ساهية . وقد اضفى لون فستانها الاحمر على شعرها التماع الحريق . وبين الفينة والاخرى كانت ترفع عينيه ، وتطوف بها على كل الجالسين وراء المائدة . ولكن لم يكن فى الاغماق المغبسة لحدقتها القى ولا ابتسامة .

وكان ثمة جوربى طويل نحيل جدا ذو وجه نحيف وعينين حزينتين فى سترة قديمة قد وقف متكئا على عضادة الباب ينظر الى مارغريتا دون حراك .

لقد كان ذلك الرجل هو الرسام المتشرد نيكو بيروسمانيشفيل . وكان يحب مارغريتا ، وكانت هى له الشخص الوحيد فى الدنيا . وكان كل بوصة من الارض لم تظلمها قدم مارغريتا تبدو له فضلة من صحراء . ولكن كل بقعة تحتفظ باثرها كانت له ارضا مباركة ، وكل حبة من الرمل عليها تتلقى كمامة صغيرة .

على هذا النحو كان الشمسراء الفارسيون من النوع الوسط . سيبتغنون بشبايع بيروسمانى . ومع ذلك فانهم سيكونون على حق ، رغم التعبير المزدكس .

كان اليوم الذى لا يسمع فيه نيكو صوتها افرغ يوم على الارض بالنسبة له .

والحب المفرط يثير رغبات يتعذر تحقيقها على الرجل المتزن . ومن من الناس يمكن ان تخطف فى راسه فى الحالة الاعتيادية فكرة وحشية كأن يقبل صوت انسان او يمسد بحدر على راس الطائر الصافر اثنا صغيرة ، او ، اخيرا ، يقهقه مع العصافير بينما هى تنير حوله الصياح والعراك .

فى بعض الاحيان كانت تظهر لدى بيروسمانى رغبة مذهلة فى ان يلمس حنجرة مارغريتا الراعشة ، وهى تغنى ، رغبة فى ان يمس بالنفس فقط هذا الصوت الغامض ، هذه النفثة الدافئة من الهواء ، التى تصدر مثل هذا الرنين الرائع المثير للمشاعر .

يقول الناس ان الحب الكبير اكثر من اللازم يخضع الانسان . ولم يخضع حب نيكو مارغريتا . وهذا على الاقل ، ما كان الجميع يظنونه . ولكن مع ذلك كان من المستحيل ان يفهم هل كان الامر كذلك حقا ؟ ونيكو نفسه لم يكن قادرا على ان يقول ذلك . وكانت مارغريتا تبدو وكأنها تعيش فى حلم . وكان قلبها منلقا للجميع . كان الناس بحاجة الى جمالها . ولكنها ، على ما يبدو ، لم تكن هى نفسها بحاجة اليه ، رغم انها كانت تحرص على مظهرها الخارجى ، وترتدى جيدا . فقد كانت وهى ترفل بالحرير وتعتيق بالطور الشرعية تجسيدا للانوثة الناضجة .

ولكن جمالها كان ينطوى على شىء رهيب ، ويبدو انها نفسها كانت تفهم ذلك .

لم يكن احد يعرف من اين جاء بيروسمانى . وفيما بعد ، بعد وفاته ، علم الرسام كيريل زدانيفيتش من الشذرات والتفت سيرته ، وعلى الرغم من انها غين كاملة ، الا انها استعادت حياته .

ولد بيروسمانى في عام ١٨٦٢ في قرية ميرزاكى في منطقة كاخيتسيا ، في عائلة فلاح فقير . وقد اعطاه والده ، وهو صيى ، ليندم في عائلة موسرة في تفليس .

وقد اشتغل بيروسمانى خادما حتى سن العشرين . ثم عمل بائع تذاكر على الخط الحديدى لما وراء القفقاس . وفي تلك الفترة اخذ يرسم للمرة الاولى . وكان عمله الاول صورة لانظر المحطة وزوجته . والظاهر انها كانت صورة لاذعة وكاريكاتورية ، لان ناظر المحطة طرد بيروسمانى من الخدمة حالما رأى الصورة .

وماذا كان عليه ان يفعل ؟ لم يكن بيروسمانى يستطيع ان يزاول ما كانت تزاول غاليلية الباشين في تفليس آنذاك - الاعمال الكثافة المربية والغذاء الناجح والفاسل . فقد كان انقى قلبا بكثير واكثر عزة بالنسبة لهذه الاعمال .

لم يكن متبطلا وصعلوكا تفليسيا شبه شحاذ مرحا ووقعا . ولم يكن يقدر ، كالصعلوك ، ان يصنع نقودا «من الهواء» ، من التندر ، من المزاج غير اللائق ، و«تهيق الحمار» . اخذ بيروسمانى في احد الاوقات يبيع الحليب في ركن خلفي من السوق ، وراح يقتات على دخله الشحيح على نحو ما . ولكن حتى هذه الزاولة اقرفته .

وقد ملا كل دكانه بالرسم ، فكان اشبه بزهرة متفتحة ، وكان يؤخذ لوحاته الاولي هدايا ، وكان سعيدا حين تقبل عن رغبة .

واحيانا كان يوزع لوحاته ، او «لوحاته» كما كانت تسمى في السوق ، على بائعي مختلف الاشياء التي قلما يحتاجها انسان . وكانت هذه اللوحات «لاصحاب الهواية» كما يقول ، وكانت تسمى بلفظة اجنبية مبهمة هي «بريك اريك» ولكن هذه اللفظة ، حسب رأى بائعي الاشياء المستعملة ، مغرية وعلى الانص لانها كانت غير مفهومة لا للبائعين انفسهم ولا لبيروسمانى ولا للمشتريين .

ولكن مراعاة البائعين على هذه الكلمة لم تنجح . فقد كان المشترون يندهشون بشدة ، بل ويفزعون ، ولكن لم يكونوا ياتخذون اللوحات . وكان البائعون يدفعون قروشاً زهيدة لقاء لوحاته .

وكان بيروسمانى يتضور جوعا . كان احيانا يستجير بحامل احد البيوت ، او يذبح نخلة مثربة عتيقة كالعلم ، ويجلس ساكنا حتى يقف رأسه عن الدوران .

واضطرب الى ان يعود الى مسقط رأسه ، الى القرية ، حيث كان يتحتم ان يقع على كاهل بيروسمانى كل عبء التقاليد الحياتية والعائلية .

وملا بيروسمانى بيته في القرية ايضا بالرسم من الاعلى الى الاسفل حاطيا باعجاب كبير من قبل الاهل والجيران .

ثم اقام بيروسمانى وليمة في هذا البيت . وبعد ذلك رسم اربع لوحات تصور هذا الاحتفال الريفى . كانت الوليمة مدهشة لانها ، خلافا لغاليلية الولايم لم تكن تضم اغنياء . كان الضيوف بين وقوف وجلس ومستلقين وقد رفعوا اقداح النبيذ عاليا ، وقد رسم بيروسمانى هذه الجمهرة الزاهية المتأنقة بجرأة كبيرة . وفي آخر الامر تفتق ذهن بيروسمانى عن مخرج بدا له موقفا . عاد الى تفليس ، وبدأ يرسم لافتات زاهية الالوان للمطاعم لقاء عدة وجبات من الغداء مع النبيذ وعدة وجبات من العشاء . وكان ياخذ قسما من موده نقودا ليشتري بها الاصباغ ويدفع اجرة الماوى .

ولكن النقود لم تكن تكفى ابدا لقماشات رسم . فكان اصحاب المطاعم يخلعون بطاوعية لافتات التنك القديمة ، ويفتحون ان يرسم عليها بعد ان يطلى مقدما لوئها المسود . الا ان بيروسمانى لم يكن يوافق على ذلك .

كانت لافتات التنك تصدأ . وكان بيروسمانى يعرف انه وان كان رساما غير متعلم وعلى اى مستوى كان ، او كما يقول الروس ، رساما متعلما بنفسه ، فانه يستطيع ، على ما يبدو ، ان يقف في صف بعض الرسامين الكبار (وكان قد شاهد صورا جيدة منسوخة للوحاتهم) ، وربما حتى في صف دى لاكروا نفسه ، وكان قد حدثه عن هذا الفرنسي بكثرة طالب كان يعلم ايضا بان يكون رساما .

لم تكن هناك قماشات رسم ، وبدأ بيروساماني يرسم على
الشيء الوحيد الذي كان متوفرا دائما في كل المطاعم ، وحتى في
ارخصها ، وهو المشمع البسيط المأخوذ من على مائدة .

كانت المشمعات بيضاء وسوداء . وكان بيروساماني يرسم
تاركا رقما غير ملونة على المشمع في المكان الذي يراه ضروريا .
وفيما بعد استخدم هذه الطريقة أيضا في رسم صور
الاشخاص . وكان الاتي الذي تركته بعض الاعمال المرسومة بهذه
الطريقة غير اعتيادي .

وقد انطبعت في ذهني الى الابد مشبعته «الامير» وفيها يقف
عجوز شاحب في سترة جرسية سوداء على ارض صغيرة وفي يديه
قرن لشرب النبيذ . وقد ظهر خلفه القفاس الجبل وقد رسم الى
حد التخطيط الطوبوغرافي تقريبا . وكانت سترة الامير في هذه
الجرة قطعة غير ملونة من مشمع اسود اللون غامق حاد بشكل
خاص على اضاءة الفجر الشاحب . ولم استطع ان افهم بآية اصباغ
نقلت هذه الاضاءة .

وكان بيروساماني يحصل من مثل هذه الصور ، في افضل
اوقات حياته ، على عشرين الى ثلاثين روبلا فقط .

وقد اعجب الرواد بلافتات بيروساماني : العنب المشفاف ،
والقرعيات ، والبرسيمون البرتقالي ، وحدائق يوسف افندي
الملتفة وصور الطبيعة الساكنة الغنية لمختلف الاعشاب ،
والبادنجان ، وشواء اللحم والجبنة والسبك المشوي «لوكو» .

الا ان بيروساماني لم يستطع ان يرسم الى ما لا نهاية هذه
الطبيعة الساكنة للافتات . فان الافراط ، كما هو دائما ، كان
يشير الضجر . وعندما اخذ بيروساماني يرسم على اللافتات ولائم
كثيرة على العشب ، على اخوة الفلاحين الضيقة . وظهرت على
اللافتات صور اشخاص ومظهر طبيعي وحيوانات ، وبشكل
رئيسي ، الحميم الكثيرة التحمل .

واحيانا كان بيروساماني يكتسب اسما للمطعم مشاورا مع
صاحبه . وكلما كان الاسم مستقصيا على الفهم ازداد حظه من
الاعجاب .

كان بيروساماني يكتب ضاحكا في نفسه «شواء بالكهرباء» او
«لا تشرب وجدا» .

وكانت هذه الاسماء الطنانة محبوبة بشكل خاص في الريف
الجورجي في مناطق اوزيرغيتي واخالكالاخي او ساغاريدجو .

وانا لم ادرك بيروساماني وهو حي ، فقد توفي قبل وصولي
الى تفليس .

وقد ترك بيروساماني ثروة هائلة من الرسم . قضى كيريل
زدانيفيتش جملة من الايام وهو يجمع لوحاته من الاشتات
بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة . واكتشف بيروساماني كله تقريبا ،
وانتقد اعمال رسام شعبي رائع ، وقام بمائة حقيقية ، واهدي
فيما بعد مجموعة لوحات بيروساماني للدولة ، وبكلمة اخرى
للمشعب .

في عام ١٩١٣ التقى كيريل زدانيفيتش في بتروغراد بالرسماء
غونتشاروفا والرسام لاريونوف . وقد جاء الى بتروغراد قادمين
من مولدافيا ، وقد جلبا معها لافئات مضحكة وزاهية جدا عثرا
عليها في تيراسبول .

وقد اعجب كيريل زدانيفيتش كثيرا باللافتات . وبعد قليل
وجد في تفليس لوحة اكثر جمالا في مطعم «قارياغ» واشترها .
وكانت بريشة الرسام المعثور نيكو بيروسامانيشميلي .

وكان لكيريل معارف من الفلاحين واصحاب المطاعم
والموسيقيين المتجولين ، والمعلمين الريفيين . وقد عهد اليهم
جميعا بالمعثر على لوحات ولافتات بيروساماني له .

في البداية باع اصحاب المطاعم اللافتات لقاء قروش زهيدة .
ولكن سرعان ما شاع ما جورجيا ان هناك رساما من تفليس
تستري لافئاته لتصدر الى الخارج على حد ما زعم ، وبدأ اصحاب
المطاعم يزدنون الثمن . وهرعت مازيا زوجة كيريل زدانيفيتش الى
سوق ديزرتير لتبيع اقراطها الاخيرة وآخر سترة . وانطلق كيريل
في تفليس على امل ان يعلم ولو قليلا من النقود .

وفي نهاية الامر جلب كيريل المتجهج (كان كلنا عظم تأثره اذداد تجهجا) لوحة ، وبسطها صامتا ، وقال «حسننا ، هذه هي ا» وطلعت هذه اللوحة بعد ذلك مسلسلة عدة ايام في مكان الصدارة في غرفة الطعام .

وبعدنا نام من الانفعال حتى شبع من النوم ، وفيما بعد بدأ تولاند محبى الرسم . ومن غرفتي كانت تسمع كل الاحاديث في غرفة الطعام ، وسرعان ما حفظت عن ظهر قلب تواريخ كل اللوحات الجديدة .

بدأ تعرفي بيروسمانى منذ اليوم الاول من اقامتي في تفليس في شقة زدانيفيتش . فقد استأجرت عنده حجرة .

كانت جدران هذه الحجرة قد غلقت عليها مشمعات بيروسمانى من الطنف الاعلى حتى الجزء الاسفل .

في يوم وصولي لم الق عليها الا نظرة خاطفة . وفضلا عن ذلك فقد كانت الحجرة معتمة بسبب نهار تفليس الشتائى ومع ذلك فقد لاذمنى طوال الوقت اضطراب غير مفهوم ، وكأنها اخذت من يدى عبر بلاد مذهلة عجيبة تماما ، كأنها رايتها من قبل ، او حلمت بها منذ زمن بعيد ، ومنذ ذلك الحين اتحرق لهنة لانظر في هذه البلاد ، وان الملم نفسى ، واتعرف عليها بكل تفاصيلها . وغفوت والاضطراب يملأ قلبي ، الاضطراب من لوحات غير مألوفة لى ، كانت تحيط بى صامتا ، وغير صارفة نظرها عني ، كما بدأ لى .

واستيقظت في وقت مبكر جدا على ما يبدو . كانت الشمس الحادة الجافة ترتدى منحرفة على الجدار المقابل . نظرت الى هذا الجدار ، وقفزت . وبدأ قلبي يدق دقا ثقيلنا سرعيا .

كان يحدق في عيني من الحائط حيوان غريب مشدود كالوتر وهو يتعذب بهلج وتساؤل ووضوح ، ولكنه غير قادر على ان يتحدث عن عذابه هذا .

كان هذا الحيوان زرافة . زرافة اعتيادية يبدو ان بيروسمانى رأها في حديقة الحيوانات في تفليس .

وصرفت بصرى عنها الا اننى كنت احس واعرف ان الزرافة تتفرس في ، وتعرف كل ما يدور في خلدي .

كان هدوء ميت يسود البيت كله . وكان الجميع ما يزالون نائمين . صرفت بصرى عن الزرافة ، وبدأ لى في الحال انها خرجت من الاطار الخشبي البسيط ، وهي واقفة الى جانبي تنتظر ان اقول شيئا بسيطا جدا ومهما يبطل السحر عنها ويحييها ، ويعتقها من الالتصاق الطويل الامد بهذه المشبعة الجافة المتربة .

وفجأة صعد الى القنا صياح مستميت «ماتسبونى ! ماتسبونى !» . على هذا النحو كان باعة الماتسبونى (الذين المخش الجورجي) يصيحون باستماتة وانتحاب تقريبا ، لسبب لا ادري به . وكانوا يحملون بضاعتهم ضاربين في المدينة محملين عدول جرار اللبن المخش على حمير صغيرة سوداء مقبرة ، وكأنهم السائلة مسحوا عليها اقدامهم لوقت طويل ، كما يمسحون على الممسعة عند عتبات البيوت .

وجفلت من صياح باعة اللبن واخذت بالأتين . الا ان الرجة لم تزالنى ، ورحت ان اشد فأشد محاولا ان اخفض برباطة جاني . دخلت الزرافة المشبعة الكامدة . وادركت ان نوبة قاسية من الملايا قد اعترتني .

وبعد قليل عرفت كل لوحات بيروسمانى تقريبا . وقد ساعدتني على ان افهم واحب القفاس - البلاد المعقدة والرأسخة كالموزايك .

واضح بيروسمانى بالنسبة لى موسوعة لجورجيا مصورة طليقة في تعبيرها ، ولناسها وتاريخها وطبيعتها ، وانطبع في ذهني الى الابد مناظر القفاس الطبيعية ابتداء من الليل المقمر السحري فوق ترسانة تفليس ، وانتهاء بالمنظر الطبيعي المتلفظ للبحال عند قدمي شامل .

كانت تتزاحم على المشمعات المقبرة قليلا في شقة زدانيفيتش مئات من فلاحي بيروسمانى التحفيين ، ومزارعي الكروم المرحين ، والنساء الفقيرات الغيولات ، والصيادين ، والاغنياء المتحرفين ذوي الشوارب السمكية ، والبوايين التفليسيين ذوي اللحى

الضخاء كمكانيسهم المقصومة ، والموسيقيين اللامبالين . ومن حين لآخر كان أحد الناس يتذكر هذه اللوحة أو تلك فيقص شيئا طريفا عنها .

كان الناس يحتلون جزءا كبيرا من لوجات بيروسماني ، ولكن ثمة مكانا خاصا فيها كانت تختلف مختلف الحيوانات - الاسود والفزلان والجواميس والزرافات والجمال والحمر اصحاب الرسام الرديعون .

ان الفن دائما يسس قلب الانسان ، ويعصره قليلا . والانسان لا ينسى ايدا هذا المساس الواضح للنفس الجميل .

الانسان لا ينسى تلك الحالة من الامتلاء الروحي والتحليق ، التي يقدمها له احيانا بيت واحد ، واحد فقط من الشعر الرائع ، او لوحة عاشت عدة قرون لتحمل لنا جمالها .

ولو لم اعرف بيروسماني لرايت القفاس غير واضح المعالم مثل صورة فوتوغرافية باهتة لم تحمض بشكل كامل ، بلا الواث ولا ظلال ، بلا تفاصيل ولا خطوط بارزة ، وبدون الظلام المزرق لرحابه نصف الشرقية ونصف الغربية .

لقد ملا بيروسماني القفاس في بنسج النمار وحدة الالوان الجافة . وقد ضمنى الى هذه البلاد التي تحس فيها في آن واحد بالفرح والحزن الخفيف غير المفهوم ، على النحو الذي تلعب فيه عيون الحسانوات الجورجيات بالمرح والحزن المكبوت . وهن في العادة يغتظفن بسرعة وخفة بالزحام ، هؤلاء الحسانوات ، رغم رجاء الشاعر الرقيق الموجه اليهن :

الفتى الى ، يا حبيبتي ،
يا حبيبتي ، لفته منك الى !

ان ذلك الصباح الصبيح لم يختلف في البداية عن الصباحات الاخرى . كانت الشمس ترتفع من وراء القفاس بقوة لا توقف كما هي دائما لاهبة كل شيء فيما حولنا ، والحمر تنهق كشائها دائما ، وقد ربطت الى اعمدة التلفزيون ، ونفس اولئك الشاس

بشواربهم السوداء ذات المسحة الفضائية يسيرون في الشوارع يحملون صفيحات كبيرة ينادون دون ما رغبة «نفط ! نفط !» ليبيعوا الكيروسين لربات البيوت .

كان كل شيء كما هو دائما : نهر كورا يضج عند اللواحين عند جسر الحمر ، وعربات الترام شبه الفارغة ترون رنينا مخدلا . وكان الصباح ما يزال غافيا في أحد الازقة في سولولاكي ، والظل ينطرح على البيوت الخشبية الواطئة الرمادية من تعاقب الزمن . في أحد هذه البيوت كانت نوافذ الطابق الثاني مفتوحة على مصاريحها ، ووراءها كانت تنام مارغريتا ، وقد غطت عينيها رموش ضاربة الى الحمرة .

وفوق سولولاكي كان جبل داود وخط الترام المعلق عنه قبر غريبيدوف بيدوان وكانهما في زجاج سائل . وقد نما الميلاب على جبل داود ، وكنت غالبا ما اسير فيه الى متاسميندا المقدسة ، واشاهد هناك قبرى الشاعرين الجورجيين العظيمين : ايليا تشافتشافادزه واكاكي تسييريتيلي . لقد مدت غنائتيهما الشعرية وميلهما في الوقت ذاته الى السخرية الثقافية الجورجية بمق خاص ، واساطيها بالهواء القوى الرهيف للوضوح الكلاسيكي . وقد دفن في ذلك المكان معاصرنا تيشيان تابيدزه المدهش في رفته وسعة عقله .

ولكنني احول ذهني .

وبشكل عام كان من الممكن ان يكون الصباح اعتياديا للغاية حقاً لو كنت لا اعرف انه صباح اليوم الذي ولد فيه نيكو بيروسماني ، ولو لم تظهر في هذا الصباح بالذات في زقاق ضيق في سولولاكي عربات تحمل حمولة نادرة ونغيفة .

كانت هذه الحمولة من الغنفة ، على ما يبدو ، بحيث ان العربات لم تصرف تحتها ، بل ارسلت دمعلة لا تكاد تسمع ، وهي تنط على احجار الرصيف الكبيرة .

كانت العربات محملة الى الاعلى بزهور مقطوعة مرشوشة بالماء مما جعل الزهور تبدو وكأنها قد غطت بمئات من قويسات قزح الندى قبيل طلوع الفجر .

وتوقفت العربات عند بيت مارغريتا . وتبادل سائقو العربات الحديث فيما بينهم بصوت خافت ، واخذوا ينزلون هله احضانهم زهورا ، ويلقونها على الرصيف والجادة عند العتبة . وعندما انصرفت العربات الاولى ، وفرش الطريق كله بالزهور ظهرت دفعة ثانية من العربات لتحل محل الاولى . وبهذا وكان العربات لم تكن تأتي بالزهور الى هنا من تفليس فقط ، بل من جورجيا كلها .

وملات رائحة الزهور شارع سولولاكي . وظهرت في النوافذ ربوات البيوت الاوليات ، مشطن على عجل شعورهن السوداء ، ووجهن يظفرن بنهم الى المشهد المدهش : «حديقة عربيات ، اعتياديون للغاية ، وليسوا سراق» «الف ليلة وليلة» الاسطوريين عباوا الشارع كله بالزهور ، وكانوا كانوا يريدون ان يصلوا بها الى الطابق الثاني من البيوت .

وايقظ مارغريتا ضحك الاطفال وهتافات ربوات البيوت . تعدت على السرير وتنهدت . كان النهار مغمورا بجحيرات كاملة من الروائح المنعشة والمداعبة ، الباهرة والثانمية ، القرحة والعزينة . ولعل ذلك كان رائحة الرياح السماوية المتبقية بعد العبور البطيء ، للبحر السماوي الليلي المنجم فوق ارضنا ، او رائحة جتين بذرة ملونة اعتيادية كان مطورا خلال زمن طويل تحت سحابة صغيرة ، وقد اطلقه الآن الماء والدفء واملاح الارض القوية .

وكان الناس قد تجمعوا على طرفى الزقاق . يتحدثون في المنظر الغريب غير المفهوم .

واقف الناس غموض ما كان يجري ، ولهذا لم يعزم احد على ان يكون البادئ في وطأ هذا البساط من الزهور الذي كان يصل الى ركب الاطفال .

اما الاطفال الضمائر فكان من الممكن حتى ان يضيئوا في هذه الاكوام من الزهور . ولهذا فان النساء اللواتي ملاهن الاعجاب والفخر من معرفة السر المخترب تماما من عتباتهن المحكوة المألوفة الى آخر شق فيها (كن يعرف كل شق لانهم كن يضطرون

الى غسل العتبات كثيرا) كن يمسكن بايدي اطفالهن بقوة ، ولا يتركنهم عتبن .

وما اكثر ما كان من انواع الزهور ! ان من العتب تعدادها ! الزنبق الايراني الذي ينمو متأخرا . والاقاصيا الكثة بتوجيهاتها المتواضعة فضة ، والزعرور البري ، التي كانت رائحته قوية قوة التربة الصخرية التي نما عليها ، وزهور الحواشي الزرقاء الرقيقة ، والبيغونيا ، والصديد من شقائق النعمان المختلفة الالوان ، وصريمة الجدى الحسنة الانيقة في غمامة وردية ، والزهورات الحمراء للايمبوجيا والسوسمن والشخشاخ الذي ينمو دائما على الصخور اينما سقطت ولو قطرة صغيرة من دم الطير ، والكبوسين والفاونيا والورود . ورود ، ورود من مختلف الاحجام ، ومختلف الروائح ، ومختلف الالوان من الاسود الى الابيض ، من الذهبي الى الوردى الشاحب كالقبر البكر ، وآلاف من الزهور الاخرى .

ارتدت مارغريتا القلقة ملابسها على عجل ، وهي ما تزال لا تفهم شيئا . وقد ارتدت اجمل واغلى فستان لها ، كما تحلج بالاسورة الثقيلة ، وربت شعرها البرنزي وراحت تبسم . وهي تلبس ، دون ان تدري لاي شيء . ثم اخذت تضحك ، ثم ظهرت الدموع في عينيها ، الا انها لم تمسحها ، بل تفضتها فقط بحركة سريعة من رأسها . وتطايرت قطرات الدموع الصغيرة بفعل ذلك الى مختلف الجهات ، وطلت وقتا طويلا تنوهج على فستانها .

حدثت ان هذا الاحتفال قد اقيم لها . ولكن من اقامه ؟ ولأية مناسبة ؟ وفي تلك اللحظة تذكرت ان اليوم هو يوم ميلاد بيررسامى . فلربما ارسل لها كل هذه التلال من الزهور ذكرى لذلك اليوم المنسى ؟

ولكن لماذا ارسلها في يوم ميلاده ، لا في يوم ميلادها ؟ وفي ذلك الوقت عزم شخص وحيد ، نجيل وشاحب ، على ان يتخطى حدود الزهور ، ويسار على الزهور ببطء نحو بيت مارغريتا . وعرفه الجمهور وصمت . لقد كان ذلك هو الرسام البائس نيكو بيررسامانيشفيل . ولكن من اين اخذ كل هذه النقود ليشترى هذه الاكمام من الزهور ؟ وكمن من النقود !

سار الى بيت مارغريتا يمس الجدران بيده ،
وشاهد الجميع كيف ركضت مارغريتا للقاؤه ، ولم يكن احد
من الناس قد رآها قط في هذا البريق من الجمال ، واحتضنت
بيروساماني من كتفيه التحيلتين الكبيرتين ، وانضغطت على سترته
القديمة .

وسالت مارغريتا منقطعة الانفاس :

— لماذا ، لماذا اهديت لي هذه التلال من الزهور في يوم
ميلادك ؟ انا لا افهم شيئا ، يا نيكو .

لم يجيب بيروساماني . ولكن مارغريتا ادركت بكل كيانها ، بكل
اعصابها ، بكل الدم الذي كان في جسدها ، ودون جواب منه قوة
حبه ، وقبيلت نيكو بقوة لاول مرة من شفثيه . قبلته امام وجه
الشمس والسماء والشهود البسطاء — سكان حي سولولاكي في
تفليس .

واستدار بعض العاضرين ليخفوا دموعهم . لقد كان الناس
يعتقدون بان الحب الكبير يجد دائما السبيل الى قلب المحبوب ،
ولو كان باردا ، لان الجميع كانوا يعرفون ان بيروساماني كان
يحب مارغريتا ، ولكنها لم تكن تحبه قط ، كانت تشفق فقط على
حياته المريرة الخائبة .

ان حكاية حب بيروساماني تروى باشكال مختلفة ، ولكنني
سردت رواية واحدة من الروايات . وقد رويتها باختصار ، دون
ان اعطي اهمية زائدة لصحتها الوثيقة . ويتحقق من ذلك المدققون
المبضجرون .

ولكنني لا استطيع ان اصبت عن حقيقة واحدة ، ذلك لانها ،
في رأيي ، من اكثر الحقائق مرارة على الارض ، وهي ان مارغريتا
سرعان ما وجدت لنفسها عشيقا ثريا ، وهربت معه من تفليس ،







في عالم الابداع تستخدم دائما زوابع الافكار والصور والالوان والضوء، والعذاب والحب والبحث والاستقصاء . ويبدو لنا هذا العالم غامضا . ولعل ذلك لان كل فنّان اصيل ، اذ يخضع لقوانين الابداع العامة (ذلك ما يزال على درجة غير كافية من الوضوح حتى الآن) يخلق في نفس الوقت من اختلاف حياته عن حياة الفنانين الآخرين قوانينه الاضافية ، ويعمل وفق نهجه الخاص ، ويترك على اعماله طابع احواله ، ويعبر عن نفسه بطريقته الخاصة كلها . لو لم يكن فينسنت فان غوغ هولنديا ، ولو لم ينشأ في عائلة متمسكة بالتقاليد مضجرة ملأت فيه بطعم المرارة ، ولو لم يصنع منه واعظا - انسانا ذا مهنة غاية في الابهام والخلو من المسرة ، ولولا صداقته مع عمال المناجم العاطلين في بوريناج والاطباء في الفرنسيين المتحررين ، ولولا . . .

وفي الامكان ذكر عشرات من «لولا» هذه ، ولكن هناك شيئا واحدا مهما هو ان نزعات وظروف حياة فان غوغ ساقط هذا الرجل بطرق غير معروفة الى نهاية غير متوقعة عند الوهلة الاولى - الى ان يصبح واحدا من عظماء الرسم الاعمى في العالم .

وقد قدم فان غوغ درسا عظيما لكل رجال الفن . درسنا في التضحية بالنفس والاستقامة التي لا تلبث فنانتها ، والتحسّس الرائع الذي يرمي كالقشرة بالمعنى والخيالات الشخصية .

وصف احد الذين كتبوا عنه حياته بانها جبل الجبلية * . فقد سُمّر على صليب رسمه ، كما سُمّر دستوفسكي على صليب تثره .

ولا حاجة الى الفرع من هذا التشبيه . فهو يدل فقط على اندفاع الرسام اثر الى ان ينقل للعالم كل ما هو راتع يحيا في قلبه وعقله بحيث ان وجوده كله يمثل امامنا كل طريق مرهق معذب وسار في الوقت ذاته . وهذا الطريق يقع على شفا القوى الانسانية تقريبا .

* الجبل الذي صلب فيه المسيح ، كما جاء في الانجيل - المترجم

وهذا يفسر موت فان غوغ ايضا . وليس هناك اكثر لؤما من ان تترد نهاية حياته الى الباثولوجيا والجنون فقط . لقد قيل منذ زمن طويل وعُرف منذ زمن طويل ان الفن يتطلب من الفنان ان يهب نفسه كلها بدون فضلة وبلا ندم . وفي هذه الحال فقط يتال الفنان القوة غير المفهومة التي تسمى بعض الاحيان بالسحر . والامثلة كثيرة على ما نسيمه سحرا لشعة لفتنا .

ولتورد مثلا واحدا فقط . في تراقيا ، وبالقرب من مدينة كازانليك اكتشف قبل فترة وجيزة قبر قائد تراقي . وقد زُين بالفريسيكات ، وقد صور في احداها القائد المتوفى جالسا وراء مائدة مادية وهو اسود نحيل ، وكانما احرقه الموت .

والى جانبه تجلس زوجته الحية ، وهي امرأة جبيلة حزينة ، ويدها تضغط على يد زوجها السوداء . ولكن في هذه اليد الحية ، في اصابعها القوية الرقيقة من السكينة والايمان في خلود المحبوب بحيث ان كل هذه الفريسيكو على القبر تبدو اعظم تأكيد على الحياة والحب .

وكتير هذه الفريسيكو الاحساس بالسحر ، وهو يتضاعف بالخيول السوداء العصبية الواقعة خلف القائد الميت .

كان فان غوغ رجلا ذا اندفاعات اجتماعية . وكان يبحث عن تنظيم جديد عادل للعالم . وقد سمى نفسه رسام الناس البسطاء - الفلاحين والعمال . وهو صاحب الكلمة القائلة : «ليس هنا اكثر فنية من ان تحب الناس» .

وحياة فان غوغ كلها تأكيد على انه ، على الرغم من «الحكمة الكاذبة» التي لا تعتبر الرسم غير خادم للواقع الراهن ، فان الرسم قائم كظاهرة رائعة هي بعدها هدف لذاته في سلسلة ظواهر الواقع الاخرى .

ان الموقف غير الصافي النية والمتشكك القائم حتى الآن ، والمتلاشي لحسن الحظ ، هذا الموقف من الاطباء ، من فان غوغ يرجع اما الى الجهل الفني او الى رفض ان يكون الشيء الجميل قوة حياتية متحركة ، او ، واخيرا ، الى الفرع امام كل ما يتعارض مع الاذواق الرثة والافكار المتعفنة .









ما يزال لدينا أناس «محبوبون» على الفن يشبهون صاحبة
الغرف المزججة التي كان يعيش فيها ليفيتان في موسكو . كان
مدينا لها ، فأراد أن يسعد هذا الدين بلوحاته ، الا أنها لم
تأخذها ، لأنه لم يكن لدى ليفيتان «موضوع» ، على حد قولها .
فمن بحاجة الى السكنينة الغالدة للأنهار الشمالية ، او الى الخريف
المذهيب تحت قباب السماء المضبية ، إذا كانت الموجات لا تتوى
على اشخاص وإقار ، وأخيرا ، على دجبات !
الموضوع شيء عظيم ، ولكن لا يجوز أن نطلب من جميع
الرسميين (ولا من الكتاب) وحدة المضمون والشكل . فالفن
الاصيل لا يمكن أن يوجد الا مع سعة الإراء والأذواق .
إذا نحن نعتز بالفن الهيلينى ، ونعزف بفتنة نفريتي
وسلطان دي لاكروا ونستروف ، ومئات من الرسميين المختلفين
الآخرين فكيف نستطيع أن ننكر أهمية فان-غوغ الجبارة بمهرجان
الوانه الدقيق الوضاء ورويته العميقة للعالم ! فان رجلا لا تسره
ولا تؤثر فيه لوحاته ، اما منافق ، او كما قال الشاعر الفارسي
سعدى «قرعة جافة» .

من الصعب أن نجد مثلا على التخلي عن النفس باسم الفن اكبر
من حياة فان-غوغ . لقد حلم بان ينشئ في فرنسا «أخوة الرسامين»
التي هي كرمونة من نوع خاص ، لا يصرفهم فيها شيء عن خدمة
الرسم .

لقد عانى فان-غوغ الكثير ، وقد هوى الى قاع الياس الانساني
فى لوجتيه «الكثلة البطاطس» و«جولة السجنة» وكان يعتبر أن
همة الفنان هو مجابهة المعاناة بكل قواه ، بكل موهبته .
إن مهمة الفنان تولد الفرح . وكان يخلق بالوسائل التي كان
خاصية الطبيعة فى تناسب الالوان الصنيع ، والتنوع الذى لا حصر
له فى تحولاتها ، ذلك اللون للارض الذى يتغير باستمرار ، ولكنه
يمكن منها أكثر من غيرها ، وهى الالوان . وكانت تهره دائما
فى الوقت ذاته جميل فى كل فصول السنة ، وفى كل خطوط العرض .
لعبت مدينة آزل الواقعة فى بروفانس دورا كبيرا فى حياة
فان-غوغ . وآزل شبيهة بحلم .

ضوء النهار - يتقانه وحدته - يجعل لوحة آزل مجسمة بصورة
خاصة وبارزة بشكل خاص ، مثلما يجعل حليتها الرومانية التي
ينطلق فيها مصارع الثيران الآن ، وشواويعا الخالية الشحيحة
يخطوطها التي تشبه اسبانيا المجاورة ، وبيت فان-غوغ الصغير
المعزول الذى سلم فى طرف الغواء الذى تخلف من حى دمرته غارة
جوية .

فى بهو الانطباعيين فى متحف اللوفر تحفظ اللوح مزج الاصباغ
لرسمي فرنسا الكبار ، ومن بينها لوحة فان-غوغ . وهى تبدو
وكأنها مكونة من قطع سمينة من ارض آزل ، وهى تلمع بالصغرة
والالمنيوم والنبية الاحمر واللون الخريفى لورقة العنب والصدأ
القديم والثقيل البنفسجى الرطب للارض التي اعيدت حرائتها لتوها .
والاشجار التي ريلتها ايدى عمالقة غير مرئيين بعقد نحاسية
تضغ بقشرة يمامية .

إن كل شيء كثيف ومتناسك . وكان الاصباغ تتباعد بعضها
عن بعض ، وهى لا تقوى على تحمل قوتر ولسمان جيرانها .
لقد غير الارض على جنفاصاته . وكأنما غسلها بما ، الاعاجيب ،
فتألفت بالوان من السطوع والكثافة بحيث إن كل شجرة عجوز
تحولت الى عمل من اعمال النحت ، وكل حقل برسيم الى ضوء
شمسى تجسد فى جبهة من الهالات المزهرية المتواضعة .

لقد اوقف بارادته تعاقب الالوان غير المنقطع ، لتسطيح
نحن ان ننفذ الى جمالها .

وهل من المعقول بعد ذلك ان نؤكد ان فان-غوغ كان غير
مكترت بالانسان ؟ فقد اهدى له احسن ما كان يمتلكه : قدرته
على ان يعيش فى ارض تتألق بكل الالوان الممكنة ، وبكل
التماعات الدقيقة .

لقد كان فقيرا واثوفا وغير عملى . وكان يقاسم المتشردين
آخر قطعة من الخبز ، ويعرف جيدا ، ومن تجربته الخاصة ، ماذا
يعنى الظلم الاجتماعى . وكان يزدري النجاح الرخيص .

وبالطبع لم يكن مناخلا . ويطولته تمثلت في الايمان الراسخ
 بالمستقبل الرائع لاناس العمل - حراث الارض والعمال ، الشعراء
 والعلماء . ولم يكن في وسعه ان يكون مناخلا ولكنه اراد ان
 يسهم بقسطه ، واسهم به ، في ذخيرة المستقبل ، بلوحاته التي
 تمجد الارض .







فتحت النافذة ، وأندفعت الريح في الغرفة . وإلى الأسفل كانت ترقد مدينة غير مألوفة . والشمس ترتفع عاليا فوق السطوح . وكانت رائحة الأرض قوية بشكل خاص بعد العاصفة .

سحبت من تحت الدور جدول مواعيد خطوط البواخر - الورقة صفراء ، صقيلة - وكتبت على ظهرها :

«كن متشردا ، التقط كل ما يقع في طريقك - الضباب ، وجوه الناس وقد خلقت الأمراض عليها غشونا ، الإشعاع التي لا يقرأها أحد - وفكر بذلك بسعة ، وجد نماذج غير مألوفة كما في العلم وأيدا حياة ثانية ، ولتكن على هذه الأوراق ، وأخلق عالمك الخاص - غير الاعتيادي والغريب على المحيط كله - المخادش أليانس غير المتبصر بشكل مضحك . «نحن على مرآة روحك ، وستشعر بالاستمتاع . روحك التي جنبها الحب تنظمن وتحلق إلى النوى البعيدة ، حيث تزيح الحقيقة الدثار عن عقلك بينديها الواهيتين للنور» أنا استطيع ان افكر في هذه الحكمة الفارسية الماثورة ساعات واجد فيها عمقا متجددا .

انا افكر كثيرا في الشيء المازي . هذا تخليط صغيير بالزيت . انه في محفظة اوراقي . وفي اسفله توقيع اسود «إلى غوغان - فينكلر» .

غوغان .

وأبدأ بالتفكير في حياة هذا الانسان .

كان والده غوغان اسبانية ذات شعر كمل - هي ابنة حفيد فرسان مات عطشا في الصحراء المكسيكية . رثي الدروع النحاسية والنيب والذهب - الذهب الاسطوري الريح والسفس ، كل ذلك شطب على ماضي عائلتها الكاثوليكية . اعطت ابنها إلى مدرسة يسوعية . فدرس اللاتينية والترانيل وتعرف على الحب الطاهر وتحول دم المسيح إلى نبيذ بورغوندي وقد كان في الكهان الصغاف ، وفي مسوحهم المتضوعة بالبخور والعلور شيء من اسلافه القسا . كان الرهبان فاتح عصر امبراطورية القديس بطرس العظيمة .

1٥ . وخرج من المدرسة ملجدا . وصار في احد الاوقات يحارا . كانت الرحاب الشترامية الاطراف تناديه بصوت من اسلافه مبهم . لقد مرت خلال ذاكراته كالشرخ في زجاجة اللوحات الجراء ، للاماسي الاستوائية ، وطلاؤها الذهبي الفلذ والمشمع ، وانفاس الغراية التي لا يتصورها عقل . وهل من السهل حقاً ان يتحمل المرء طول العمر الخنثى إلى البعيد الشفاف ، والظلمة في ان يصور كل ذلك بالوان جديدة ؟

لقد كان ينتمي إلى البلدان البدائية ، هذا الباريسي ذو السمرة القهوانية والبياض الاصفر لعينيه القلقتين .

كل شيء عادى بشكل مفرط : خدمته في البنك ، بعد ان نزل من السفينة ، والعائلة ، والبيت الصغير بمصانره الخضراء في حي هادي من باريس ، وزمحات ايام الاحاد على النهر ، كل ذلك استبدلته فجأة وببساطة بحياة رسام معدم . وسادة قذرة . و . ان غير حليقين ، ولزق الاعلانات في البولقارات ، ولوحات اولى ما إلى غائمة . تلك هي بداية مستقبله .

كان يكره العقائدية والثقافة . لقد كان فيها شيء مسطح غير حي . وان يعيش في المدينة ، ولا يعرف حتى خارطة السماء النجمية شيء لا يحدث ! ذلك ما قاله قبيل هرويه من باريس . فهرب إلى جزيرة تاهيتي ، إلى المحيط العظيم ، ذلك الذي خلق للعظيم . هرب وقد جرخته تلك الاصقاع جرحا ممتا .

كانت الشمس تذيب الاصباغ على لوحاته . وكان ذوب الاصباغ ، اللون اللامع المبهج يسيل من الجفافات . الزرقة الداكنة ، الفرميل البني مثل جسد طفل ، اللتيات ذات الحلمات النانقة ، الجدران العالية التي ترفعها الامواج الكبيرة . الذهب في الليمون ، في الميموزا ، في اللاماسي ، وعلى ارداف النساء .

كان يرسم زلعمى ترعش يده . فيتوقف . وينظر إلى لوحاته ، إلى تلك الريش الجبارة للطيور ، ولأول مرة آمن برواية التوراة عن ايام الخليقة . كان عالم سموت فريد مثقل بالالوان الكثيفة ينظر بتعطش إليه ، إلى جسده الضعيف للغاية بالنسبة لعبرى .









وتوفى ، وغطت فتاة تاهيتية - هي زوجته - عينيه بشعرها .
كان الموسم موسم رياح ، والقيوم البيض تنطلق فوق الجزر .
وبدا وكان غوغان غط في غفوة لا غير .

ربكى المتوحشون . لقد مات رجل ابيض رائع حتى يخلق
شديد حياتهم ، جزيرتهم المدمية بالشروق من ابيض آخر في نظارة
مستديرة بانظمتها السياسية ، والاجهضات ، والخمرة والحسابات .
وكان غوغان قبيل وفاته قد اقزعه تدفق الناس من الغرب .
وقد انسلاوا ببشاشة وهذوه محركين في جيوبهم الاقراط .
والاساور . وشهوتهم تقطع منهم سم السيلان . اخذت الفتيات
يفطين صدورهن البرقالية بقماش الجيت الرخيص ، وفي الجزر
التي كان يصلى فيها للصديقة والماء راحت تنطلق آلات ريمنتون
الكاتبة . ولم يرد غوغان ان يسمح لاوربي واحد بالنزول الى وطنه
الثاني . فاعلن على اوربا حربا غير متكافئة . وان هذا المتمرّد
الكافر الذي دفنه الرهبان بكل الفخفة الانوف للطقوس الكاثوليكية
بعد ان اعترفوا به اينما بارا للكنيسة .

وهكذا قضى غوغان - الرجل ذو العينين العابستين ، وصدر
بحار ، ذو اليدين المتضوعتين بالراتنج والاصباغ ، ونفس طفل
عذبة الافكار الخالدة عن البعث وطفولة الانسانية .

وقد شاهدت لوحاته في القاعات الدافئة المفروشة بالابسطة
المشاحبة لفيلا شوكن في موسكو . ورايت امضاءه : Paul Gauguin
وانا اذكر صورته الذاتية . عينا لاعمقان داكنتان تطلان
بهذو ، وصرامة من وجه مثلث . وكان تلج ناعم هادي' موسكوفى
ينزل وراء النافذة ، ويستقر على الاقصان واقاريز الكنائس .

عبارة نصف منسيين ارتفعوا الى حد السوبرمان ، اقوياء
في مخالفتهم للمألوف ، غير اعتيادين ، اصحاب امواء كالاطفال .
وانا احب ان اذكرهم ، واردد اسماءهم . فان التاملات فيهم
مؤثرة كالصلوات .

انا اذكر الكثيرين من الجوالين ، الشعراء . عوز ، قدح من
القهوة الخفيفة ، القن منجزات كبرى وحنين لا يشفى غليله تصدا
منه قلوب من هم اقل قوة .

فن رؤية العالم





الرسم يعلم النظر والرؤية (وهذان شيان مختلفان ونادرا ما يتطابقان) وبفضل هذا يعنى الرسم حيا وطاهرا ذلك الاحساس الذى يعجز الاطفال .

الكسندر بولك

يتوقف الانسان مبهورا امام اشياء لا يمكن ان تلعب اى دور فى حياته : امام المكاسات لا يمكن ان تمسك ، امام صندوق صودية الاعداد لا يمكن ان تفتح ، امام لون السماء المائل . جون دسكين

هناك حقائق لا تقبل الجدل ، ولكنها غالبا ما تظل بلا جدوى ، دون ان تؤثر فى نشاط الانسان بسبب كسلنا او جهلنا .

من بين هذه الحقائق غير القابلة للجدل واحدة تتعلق بهارة الكتابة ، ولا سيما بعمل الناشرين . وهى تتلخص فى ان معرفة جميع حقول الفن المجاورة - الشعر ، الرسم ، العمارة ، النحت ، الموسيقى - تفتى بشكل غير اعتيادى العالم الداخلى للناشر ، وتمد تشره بقوة تعبيرية خاصة . فتمتلئ بضوء واللون الرسم ، وطراوة الكلمات التى يتميز بها الشعر وتتناسق العمارة ، وبروز ووضوح خطوط النحت وإيقاع ونغمة الموسيقى .

وكل هذه الثروات الاضافية للنشر بمثابة ألوان متممة له . وانا لا اؤمن بالكتاب الذين لا يحبون الشعر والرسم . وهم فى احسن الاحوال اناس ذوو عقل كسول مغرور ، وفى اسوأها جهلاء .

لا يستطيع الكاتب ان يزدري شيئا يوسسح رؤيته للعالم ، اذا كان بالطبع فنانا ، وليس صاحب حرفة ، اذا كان صانع قيم وليس عاميا يمتص الرفاه من الحياة بالاحاح ، مثلما تملك العنكة الامريكية .

وغالبا ما يحدث بعد قراءة اقصوصة او قصة وحتى رواية طويلة ان لا يبتغى فى الذاكرة غير رواح ومجيء ضوضائين

لاشخاص غائمين . وتجاهد بضمي لكى ترى هؤلاء الاشخاص ، ولكنك لا تراهم ، لان المؤلف لم يعطهم اية صفة حية .

والحدث فى هذه الاقاصيص والقصص والروايات يجرى فى يوم متسلخ مجرد من الالوان والضوء ، وسط اشياء سمهاها المؤلف فقط . ولكن دون ان يراها ، ولهذا لا تظهر لنا ، نحن القراء .

وبالرغم من حداثة الموضوع الا ان العجز يقطر من هذه الاشياء الموضوعة غالبا فى حياصة زائفة . انهم يحاولون ان يعوضوا بها عن الفرح ، لا سيما فرح العمل .

وعلة هذا الذبول ليست فقط فى فقر المؤلف الى العاطفة وجهله ، بل وفى بصره الغامل المهزوز .

وتتملك العزء الرغبة فى ان يحطم مثل هذه القصص والروايات مثلما يحطم نافذة صنعت تماما فى غرفة خائفة مغلقة ، بحيث يقطر حطامها شذرا ، فتندفع فى الحال من الخارج الريح وه جيج المطر وصيحات الاطفال وصقارات القاطرات ولعمان الارصة الرطبة ، وتندفع الحياة كلها بالخليط المضطرب ، عند المظرة الاولى ، والرائع لضوئها والوانها وضجائها .

عندنا غير قليل من الكتب كانما كتبها عميان . وهى معدة للمبصرين . وفى ذلك يكمن كل عيب صدور مثل هذه الكتب .

ولكى يبصر الانسان لا يحتاج فقط الى ان ينظر فيما حوله من جهات ، بل ان يتعلم ان يرى . ولا يستطيع ان يرى الناس والارض جيدا الا من يجههم . وغالبا ما تعود رانة النشر وبهرجة الى برودة دم الكاتب ، الامارة الرهيبة على موت حساسيته . ولكن ذلك احيانا مجرد عدم قدرة يدل على نقص فى الثقافة . وحينئذ يكون الامر ، كما يقال ، قابلا للاصلاح .

ان الرسامين يستطيعون ان يعلمونا كيف نرى ، وكيف نتقبل الضوء والالوان . فهم يرون احسن منا . وهم يقدرون على ان يتذكروا ما راوه .

عندما كنت ما ازال كاتب شابا قال لى رسام من معارفى :

— انت ، يا عزيزى ، ما تزال لا ترى بوضوح كلى ، بشكل مغشى بعض الشيء ، وبغلاظة . وتدل اقاصيصك على انك لا تلاحظ

إلا الألوان الاسامية والسطوح المطلية بشدة . أما الانتقالات ودرجات اللون فهي تندمج عندك في شيء رتيب .

فأجبت في تقرير :

— وما في وسعي أن أفعل ! بصرى بهذا الشكل .

— هراء ! البصر الجيد يمكن أن يكتسب . فاعتن بصرك ، ولا تكسل . ابق عليه مشحوداً ، كما يقولون . حاول لشهر أو لشهرين أن تنظر إلى كل شيء ، وكأننا يتحتم عليك أن ترسمه بالألوان . وانظر إلى الناس على هذا النحو بالذات سواء أكنت في الترام أو الباص أو في أي مكان آخر . وبعد يومين أو ثلاثة ستقتنع بأنك قبل هذا الحين لم تكن ترى في الوجوه عشر ما لاحظته الآن . وبعد شهرين ستعلم أن ترى ، وعند ذلك لن تكون بحاجة بعد إلى أن تجبر نفسك على ذلك .

وأظمت الرسام ، وبالفعل بدأ إلى الناس والأشياء امتع بكثير من ذي قبل ، حين كنت انظر إليهم خفاً وعلى عجل .

ولم أشعر إلا بالأسف على تضيق الوقت بتفاهة . فكلم كنت أستطيع أن أرى من أشياء رائعة خلال سنتين ! وكلم من أشياء رائعة ضاعت بلا رجعة ولا أستطيع لها بعثاً !

وكان ذلك أول درس اتلقاه من رسام . وكان الدرس الثاني عياناً .

ذات مرة في الخريف سافرت من موسكو إلى لينينغراد ، ولكن لا عن طريق كاليشين وبولوغوي ، بل من محطة سافيلوفسكي عن طريق كاليزين وخفونيا .

إن الكثيرين من إهالي موسكو ولينينغراد لا يراودهم حتى الظن في وجود هذا الطريق . وهو على الرغم من أنه أطول من الطريق المعتاد المار ببولوغوي إلا أنه امتع ، لأنه يمر عبر أصقاع صحراوية وغابية .

كان رفيقي سقري شخصاً صغير الجسم ذا عينين ضيقتين ولكنهما حيويان جداً . وكان مهتدي التياب . وكان يصحب معه

صندوقاً كبيراً من الأصباغ ولقات من الجفاف المطل بالطينة التعضيرية للرسم . فلم يكن من الصعب العُدس بأنه رسام .

واخذنا نتحدث . وذكر رفيقي سقري أنه مسافر إلى ضاحية مدينة تيفغين ، حيث له صاحب يعمل حارس غابة ، وسينزل عنده في مقر الحراسة ويرسم الخريف . سألته :

— ولماذا تذهب إلى هذا المكان البعيد ، في ضاحية تيفغين ؟ اجاب الرسام يستسرى :

— لي هناك مكان مفضل . تاج لكل الأماكن ! لا تجد له مثيلاً . غابة خالصة من الحور الرجراج ! وهنا وهناك بعض أشجار الشربين المتفرقة . شجرة الحور تضيء على الخريف حلة قشمية لا تضفيها أية شجرة أخرى . وورقتها صافية التلون . قرمزية ، ليونبة وبنفسجية وحتى سوداء ذات بقعة ذهبية . وفي الشمس تقيدي نارا رائعة . سامعك هناك حتى الشتاء ، وفي الشتاء أسافر إلى الخليج الفنلندي ، فيما وراء لينينغراد . وهناك ، ولعلك تعرف ، أحسن جمادى روسيا . لم أرَ له مثيلاً في أي مكان .

قلت مازحاً بالطبع إن رفيقي سقري يستطيع على هذه المعارف أن يضع دليلاً سياحياً قيماً للرسامين ليدلهم أين يجدون ضالّتهم . اجاب الرسام جاداً :

— وماذا تظن ! ليس من الصعب وضع مثل هذا الدليل . ولكن لا جدوى من ذلك . سيزدهم الجميع في مكان واحد . بينما الآن يبحث كل فرد جملاً لنفسه على أفراد . وهذا أفضل بكثير . — لماذا ؟

— البلاد تتكشف بأشكال مختلفة . في الأرض الروسية من الفتنة ما يكفي جميع الرسامين لآلاف السنين . ولكن لعلكم — اضاف بفرح — إن الإنسان أخف يكثر من سحق الأرض وتدميرها . بينما جمال الأرض شيء مقدس عظيم في حياتنا الاجتماعية . وهو أحد أهدافنا النهائية . لا أعرف كيف أنت ، ولكنني واثق من ذلك . لا يمكن للإنسان أن يكون طليعياً بدون فهم ذلك !

غفوت في النهار ، ولكن سرعان ما انتظني جاري . وقال مضطرباً :

- اغضب على ، ولكن الافضل من ذلك ان تستيقظ . ما هي لوحة مذهشة تتكشف ، عاصفة وعديّة في ايلول . فانظر ! واطللت بصري وراء النافذة ، من الجنوب ارتفعت سماعة ثقيلة عالية الى كبد السماء . وكانت ومضات البرق تهزها .

هتف الرسام :

- يا أمتنا الطاهرة ! ما اوفر الالوان ! لا يمكن ان ترسم مثل هذه الاضواء ، ولو كنت ليقيتان نفسه .

سالت متحيرا :

- اية اضاءة ؟

قال الرسام في يأس :

- يا الهى ! الى اين تنظّر ؟ انظر هناك . غابة داكنة تماما وبعيدة . وعليها انطرح ظل السحابة . وهناك ، الى ابعد ، توجد عليها بقع شاحبة ، صفراء وضاربة الى الخضرة ، وذلك من ضوء الشمس المبعثوث من وراء السحب . وفي البعيد تراها في الشمس كلها . هل ترى ؟ كأنها سبيكة من ذهب احمر . شفافة كلها . حائكة ذهبي موسى فريد من نوعه . او كما لو مدّ على الافق متدبل طرزته ماهرات في دور التذهيب عندنا في تيغفين . والان انظر اقرب ، الى شريط اشجار الشربين . هل ترى اللبمان البرونزي على اوراقها الابرية ؟ هذا انعكاس حائل الغاية الذهبي . انه يضيئ على الشربين ضوءه . ضوء انعكاسي . يصعب رسمه ، وتسهل الاسائة اليه . اما هناك ، فانظر ، شعشعة باهتة فقط ، ويمكن ان اقول ان هذه الرقة في الاضاءة تحتاج ، بالطبع ، الى يد هادئة وثاقبة لتنفلقها .

ونظر الرسام الى وضحك :

- اية قوة للضوء المنعكس عن الغابات الخريفية ، على اية حال ! مقصورتنا كلها كأنها تتروّج ، ولا سميا وجهك ، حيناً لو رسمتكم . ولكن ذلك خاطف ، مع الاسف .

قلت :

- وتلك مهمة الرسامين ، ان يوقفوا الاشياء الخاطفة قرونا .

اجاب الرسام :

- نحاول . اذا كان هذا الشيء الخاطف لا يأتذك مباحثة ، كما هي الحال الآن ، والرسام ، اذا اردت الحق يجب الا يفارق الاصباغ والجنفاص والريشة ابداً . وذلك افضل بالنسبة لكم ، انتم الكتاب . فانتم تحفظون هذه الاصباغ في ذاكرتكم . انظر كيف يتغير هذا كله بسرعة . آه ، كيف تشع الغابة بالضوء تارة ، وبالظلمة اخرى .

وامام السحابة الرعدية كانت تندفع نحونا غيوم مهلهلة ، وبحركتها المتدفقة كانت جميع الالوان على الارض تختلط بالفعل . وبدأت في الابعاد الغابية شريحة من القرمزي والذهب الاسود والابيض ، والدخنسج ، والارجوان والظلال الزرقاء .

ومن حين لآخر كان شعاع الشمس ينفذ من خلال السحابة ، ويستقل على اشجار البتولا المتفرقة ، فتتوهج واحدة بعد الاخرى مثل مشاعل ذهبية ، الا انها كانت تنطفئ في الحال . وكانت ريح ما قبل العاصفة الرعدية تهب بدفقات ، وتضمد هذا المزيج من الالوان .

وهتف الرسام :

- والسماء ، اية سماء هي ! انظر اى عجب عجاب تفعله ! كانت السحابة الرعدية ترسل دخاناً كذاذ الرماد وتهبط بسرعة نحو الارض . وكانت في كليتها بلون الازدواز الرتيب . ولكن كل توهج من البرق كان يكشف فيها دوامات صفراء مريّة ، وكهوضاً زرقاء ، وصدوعاً كلسية مضامة من الداخل بنار ووديّة كدرة .

وكان لمعان البروق العاد يتحول في قلب السحابة الى توهج الذهب النحاسي . والى مسافة اقرب الى الارض ، بين السحابة والغابات ، كانت شرائط من المطر الرابل قد بدأت تهطل .

هتف الرسام منفعلاً :

- يا للمنظر ! انت لا ترى مثل هذه الروعة الشيطانية الا ما ندر .

وانتقلنا - هو وانا - من نافذة المقصورة الى نافذة في الممر . كانت الستائر تفرق من الريح ، وتضمد من توامض النور .

هطل وابل شديد . ورفع مراقب العربية التوافد بسرعة . وكانت خطوط المطر المائلة تدق الزجاج كالآوتار . وشحب الضوء ، وفي المدى البعيد فقط ، عند الأفق تماما ، كان آخر خط منذهب من الغابة ما يزال يتنور من خلال نقاب المطر .

سال الرسام :

— هل علق في ذاكرتك شيء ؟

— شيء ما .

قال بضم :

— وأنا أيضا شيء ما . وعندما ينقضي المطر ستكون الألوان اقوى . وعند ذاك تأخذ الشمس بالتألق على اوراق الشجر وجذوعه . بالمناسبة تطلع الى الضوء في يوم غائم قبيل المطر . فهو قبل المطر شيء ، واثنا المطر شيء آخر ، وبعد المطر شيء فريد تماما . رمادى ، رقيق ودافئ . وعلى العموم ادرس الألوان والضوء . انها ، يا عزيزى ، متعة واية متعة . انا لن استبدل نصيبى كرسام باى شيء آخر .

في الليل نزل الرسام في محطة صغيرة . وخرجت انا الى الرصيف اودعه . كان مصباح كبير ومبين يضيء . والقاطرة تلهث لهاثا تقبلا الى الامام .

وغبطت الرسام . وفجأة اخذنى السخط على كل الاعمال التى من اجلها كان على ان اواصل السفر ، غير قادر على البقاء حتى لبضعة ايام في البلاد الشمالية . فهنا كل غصن من الخنثج يمكن ان يغير من الافكار ما يكفى عدة قصائد من الشعر .

وكان غير مفهوم كليا ذلك الظرف الذى احاق بى ، والذي لم يتج ل طوال حياتى ، مثل اى شخص آخر ، ان اعيش حسب هوى قلبى ، فكاننى كنت مشغولا فقط بأمر لا تحتل التأجيل .

ان الألوان والضوء في الطبيعة يجب ان تعاش اكثر مما يجب ان تراقب فقط . وبالنسبة للفن لا تنفع الا تلك المادة التى تستحوذ على مكان لها في القلب .

والرسم مهم للنائر ليس فقط لانه يساعد على ان يرى الالوان والضوء بل وان يحبها . كما ان الرسم مهم لان الرسام غالبا ما يلحظ ما لا نراه نحن ابدا . وبعد لوحاته فقط نبدا نحن بان نرى ذلك ، وندهش من اننا لم نلاحظه من قبل .

سافر الرسام الفرنسى مونييه الى لندن ، ورسم كنيسة ويستمينستر . وقد عمل مونييه في يوم لندنى ضبابى عادى . وفي لوحة مونييه لا تكاد الخطوط القوطية للكنيسة تظهر من الضباب . ان اللوحة مرسومة باستاذية .

وعندما عرضت اللوحة اثارا البلبلة بين اللندنيين . وقد ذهبا لان الضباب مرسوم في لوحة مونييه بضوء قرمزى ، بينما كان معروفا حتى من كتاب القراءة ان لون الضباب رمادى . واثارت جراءة مونييه السخط في بداية الامر . الا ان الساخطين ، حين خرجوا الى شوارع لندن ، حدقوا في الضباب ، ولاول مرة لاحظوا انه قرمزى بالفعل .

عند ذاك بداوا يبحثون عن تعليل لذلك . واستقر رأيهم على ان درجة اللون الاحمر للضباب تتوقف على وقرة السخان . وفضلا عن ذلك فان بيوت لندن الاجرية الحمراء تمد الضباب بهذا اللون .

ولكن مونييه انتصر على اية حال . وبعد لوحاته اخذ الناس يرون ضباب لندن كما كان يراه الرسام . حتى ان مونييه سمي «خالق ضباب لندن» .

واذا استقيت امثلة من حياتى ، فائنى رايت لأول مرة كل تنوع الالوان في الجو الغائم الروسى بعد لوحة ليفيتان «في السكون الدائم» .

وقبل ذلك الحين كان الجو الغائم يتلون في عيني بلون واحد مقبض . وكأية الجو الغائم كلها كانت ترجع بالذات كما كنت اظن ، الى ان هذا الجو كان يتلخ كل الالوان ، ويغشى الارض بالكندرة ، الا ان ليفيتان راي في هذا الانقباض درجة لون معينة للسعة ، بل وحتى للفتامة ، ووجد فيها كثيرا من الالوان النقية . ومنذ ذلك الحين لم يعد الجو الغائم يقبضنى . بل بالعكس احببته لنقاء الهواء ،

والبرودة التي تلتهب الخدود ، والتكسر التصديري الخفيف للإنهار ، وتحرك السحب الثقيل . وأخيرا لانك في الجو القائم تأخذ بتقدير خيرات الحياة البسيطة : البيت المدفأ ، والنار في الموقد الروسي ، وهسيس السماور ، والقش الجاف على الأرض المفروشة بالجفافص الخشن للتمام ، وضجيج المطر الداعي الى النوم وهو يهبط على السطح ، والغرفة المذبة .

ان كل رسام تقريبا ، مهما يكن الزمن او المدرسة التي ينتمي اليها يكشف لنا عن ملامح جديدة للواقع .

وقد اسعدني الحظ ان ازور معرض درزدن بضع مرات . هناك الى جانب «عنداء سيكستين» لروفايل لوحات كثيرة للفنانين القدامى اجد من الخط تماما التوقف امامها . فانها لا تدعك تصرف عنها . وانت تستطيع ان تتمتع فيها ساعات ، ولربما ، اياما ، وكلما اطلت التمتع ازداد واتسع في نفسك قلق روجي غير مفهوم . وهو يصل الى الحد الذي يصعب على الانسان فيه ان يجبس دموعه .

فما سبب هذه الدموع الحبيسة ؟ السبب هو ان في هذه اللوحات كمال الروح وسلطان العبقرية التي تجبرنا على ان نهفر نحو النقاء والقوة ونبل افكارنا .

عند تأمل الشيء الجميل تبرز الرهبة التي تسبق تطهيرنا الداخلي . وكان كل طراوة الامطار والرياح وانفاس الأرض المزدهرة وسما منتصف الليل والدموع التي اراقها الحب ينقد الى قلبيها الممتلئ ويستحوذ عليه الى الابد .

الانطباعيون كانوا قد شددوا على ضوء الشمس . فقد كانوا يرسمون في الهواء الطلق ، واحياتا ، وربما عن عمد كانوا يشددون على الالوان . وقد ادى ذلك الى ان الأرض بدت في لوحاتهم باضامة متهللة .

اضحت الأرض بهيبة . ولم يكن في ذلك ضمير ، كما لا ضمير في ان يضاف للانسان ولو قليلا من الجور .

والانطباعية ملك لنا مثل سائر التراث الغني للماضي . ورفضها يعني ان ندفع انفسنا الى ضيق الاتفاق عن وعي . ذلك لاننا لا نرفض «عنداء سيكستين» لرافائيل ، رغم ان هذه اللوحة العبقرية قد رسمت في موضوع ديني . ولسنا نحن من البلاهة بحيث لا نفهم اين يقع الحد بين عبقرية الرسم والدين ولا اظن ان انسانا سوفييتيا واحدا على الاقل اعجب ب«عنداء سيكستين» وانقلب متدينا فجأة . ان نسخ هذه الفكرة واضح . فلماذا نأخذ هذه الافكار المضحكة للغاية مأخذ الجد حين يحس الامر الانطباعيين ؟ ما الخطر علينا في المعجدة بيكاسو ، وفي الانطباعيين ماتيس وفان-غوغ او غوغان ؟ الشخص الذي ناهض - والقول بالمناسبة - السلطات الفرنسية الاستعمارية في سبيل استقلال الهاتييين .

ما هو الخطر في ذلك او الضر ؟ واية ادعمة حاكمة متكيفة مع الظروف يمكن ان تفكر بضرورة الشطب من الثقافة الانسانية ومن ثقافتنا على الاخص ، منظومة من الرسامين اللامعين ؟

بعد التفاني بالرسم في القطار وصلت الى لينينغراد . ومرة اخرى انداحت امامي المجموعات المهيبة لساحاتها وعماراتها . اعمت النظر فيها طويلا محاولا ان اكتشف سرها المعماري . كان يمكن في ان هذه العمارات تخلف انطباعا بالفخامة ، بينما لم تكن في حقيقة الامر ضخمة . ان واحدة من اروع هذه المنشآت - وهي بناية القيادة العامة الممتدة قوسا متسقا مقابل قصر الشتا لا تزيد في ارتفاعها عن بيت ذي اربعة طوابق . ومع ذلك فانها اضمخم من اي بيت عال في موسكو .

لقد كان الكشف بسيطا . فان ضخامة العمارات كانت تتوقف على توازنها ، نسبها المنسجمة ، وعلى العدد القليل من زيناتها - اطر النوافذ ، الزخرفيات والنقوشات الضئيلة البروز .

فانت تدرك عند امعانك النظر في هذه العمارات ان الذوق الجيد هو الاحساس بالحد قبل كل شيء .

وانا واثق من ان لهذه القوانين لتناسب الاجزاء ، وغياب كل ما هو زائد ، والعدد القليل من الزينات ، والبساطة التي يبرز فيها

كل خط ، وتوفر الاستمتاع الحقيقي - لكل ذلك صلة معينة في النشر أيضا .

والكاتب الذي احب كمال الاشكال المعمارية الكلاسيكية يابى على نشره التركيب الثقيل المتخلخل . وهو سيحقق توازن الاجزاء والدقة في الرسم بالكلمات . وستعاضى الافراط . في التزاويق التي تضعف النشر ، او كما يسمى بالاسلوب المزوق .

ان تركيب النشر يجب ان يبلغ الحد الذي لا يمكن ان ينحرف منه شيء او يضاف اليه شيء دون الاخلال بفحوى السرد والسياق القانوني للاحداث .

وكعادتي دائما كلما جئت الى لينينغراد قضيت معظم الوقت في المتحف الروسي والارميتاج .

ان العتمة الخفيفة لقاعات الارميتاج ، المشوبة بذهبية داكنة كانت تبدو لي مقدسة . فكنت ادخل الارميتاج ، وكاننا الى مستودع العبقريّة الانسانية . ففي الارميتاج احسست لأول مرة ، وانا ما ازال فتى ، بالسعادة لكوني انسانا ، وفهمت كيف يمكن ان يكون الانسان عظيما وفاضلا .

وفي الفترة الاولى وضعت وسط موكب الفنانين الحافل . وكان راسي يدور من وفرة وكثافة الالوان ، ولكي استريح قليلا ، كنت اخرج الى القاعة التي عرّضت فيها اعمال النحت .

وقد لبثت هناك طويلا . وكلما اطلت النظر في تماثيل النحاتين الهيلينيين المجهولين او في نساء كانوفا المبتسمات ابتساما لا يكاد يلحظ ، ادركت بوضوح اشد ان كل هذا النحت دعة الى الجميل في داخل انفسنا ، وانه يشير لانتقى شروق صياحي للانسانية . حينذاك سيسيطر الشعر على القلوب ، وسيقوم النظام الاجتماعي - نفس النظام الذي نسير نحوه عبر سنى العمل والمشاكل والجهد الروحي - على جمال العدالة ، جمال العقل والقلب والعلاقات الانسانية والجسد الانساني .

ان طريقنا هو الى العصر الذهبي . وسيكون . ومن الممزن ، بالطبع الا العمر لا يمتد بنا لنشاهده . ولكن يجب ان نكون سعداء

بان ربيع هذا العصر اخذت تضج بالفعل حولنا ، وتجعل قلوبنا تزداد خفقانا .

وليس عبثا ان هاينى كان يذهب الى اللوفر ويجلس ساعات بالقرب من تماثيل فينوس دو ميلو ويبكى .

على اى شيء ؟ على كمال الانسان المنتهك . على ان الطريق الى الكمال صعب وطويل ، وانه ، اى هاينى ، الذي قدم للناس سم وتائق عقله ، لن يبلغ ، بالطبع ، تلك الارض الموعودة التي كان قلبه المترنّب يدعوه اليها طوال حياته .

وفي ذلك قوة النحت ، تلك القوة التي بدون نارها الداخلية يتعذر الفن المتقدم ، ولا سيما فن بلادنا . وبدونها ايضا يتعذر النشر الكامل الوزن .

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا
تفضلتم وايدتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة
الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ،
واعبرتم لها عن رغباتكم .
العنوان : زورفسكى بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتى